@ketab_n
Follow Me
31.5.2016

جولي أوتسوكا

بوذا في العالم السفلي

[جائزة فوكنر للرواية 2011 ، وجائزة فيمينا للرواية الأجنبية في فرنسا 2012]

رواية

ترجمة: أبوبكر العيادي

تقديم: د. بسمة عروس

مسكلياني

جولي أوتسوكا

بوذا في العالم السفليّ

رواية

ترجمة: أبو بكر العيّادي

Twitter: @ketab_n

مسكيليانى للنشر

ألف ـ راء

علامات في الرواية العالمية

سلسلة يديرها ظافر ناجي وشوقي العنيزي

بوذا في العالم السفليّ

Twitter: @ketab_n

الكاتبة: جولي أوتسوكا
عنوان الكتاب: بوذا في العالم السفليّ
ترجمة: أبو بكر العيّادي
تقديم: د. بسمة عروس
تدقيق: شوقي العنيزي
خط الغلاف: الفنّان سمير قويعة
تصميم الغلاف: الشاعر محمّد النبهان
الناشر: مسكيليانى للنشر والتوزيع
15 نهج أنقلترا تونس- تونس العاصمة
الهاتف: 21512226(216+) أو 537090811(966+)
الإيميل: masciliana_editions@yahoo.com
ر.د.م.ك: 978-9938-833-52-2

الطبعة الأولى: 2016

جميع الحقوق محفوظة للناشر©

Twitter: @ketab_n

بعضهم تركوا اسما
لا يزال يذكر بثناء
وبعضهم الآخر لم يتركوا أي ذكرى
واختفوا كأنهم لم يعيشوا.
كأن لم يكونوا قطّ،
وكذا أبناؤهم من بعدهم.
سفر الجامعة، 44: 8 - 9

الهُريُ احترق
الآنَ
أرى القمر.
ماساهيد

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

مرحبا أيتها الآنسات اليابانيات !

في الباخرة كنّا عذارى جميعًا، أو هكذا كان أغلبنا على الأقل. كانت شعورنا مسترسلةً حالكةَ السواد، وأقدامُنا عريضة مفرطحة، وقاماتُنا غير طويلة. منّا من لم يأكلن طوال حياتهن سوى فراخ الكُركيّ والأرز وكانت أرجلهنّ مقوّسة، ومنّا من لم يتجاوز عمرهن الرابعة عشرة ولا يزلن بنات قاصرات. بعضهن قدمن من المدينة يرتدين ملابس أنيقة، ولكننا في معظمنا جئنا من الريف، وكنا نلبس للرحلة الكيمونو البالي نفسَهُ، الكيمينو الّذي ورثناه عن أخواتنا، وطالما لبسناه وكويناه ورتقناه وأعدنا صبغه مرّات ومرّات. منا من تحدّرن من الجبال ولم يرين البحر إلاّ في الصور، ومنّا من كنّ بنات صيّاد سمك وعشن دائما على الشاطئ. أحيانا كان المحيط ينتزع منا أخا أو أبا أو خطيبا، وأحيانا يصادف أن يلقي شخص عزيز علينا بنفسه في اليمّ ذات صباح حزين متلاشيا صوبَ عرض البحر، وها أن الوقت قد حان كي نرحل نحن أيضا.

كان أوّل ما قمنا به في الباخرة – قبل أن نقرّر من سنحبّ ومن لن نحبّ، وقبل أن تقول إحدانا للأخرى من أي جزيرة تنحدر ولماذا هجرتها، بل حتّى قبل أن نتعارف، هو مقارنة صور خُطّابنا. كانوا شبّانا ملاحًا بعيون داكنة، وشعر كثّ، وبشرة ملساء، خالين من العيوب تماما. هذا متينُ الذقن، وذاك مستقيم الأنف، والآخَرُ ذو هيئة لا تشوبها شائبة. كانوا يشبهون إخوتنا وآباءنا الذين ظلّوا هناك، غير

Twitter: @ketab_n

أنّهم كانوا أكثر أناقةً، بمعاطفهم الرمادية الطويلة وبدلاتهم الجميلة بقطَعها الثلاث على المنوال الغربي. بعضهم التُقطت لهم صور على قارعة الطريق، أمام بيت خشبيّ مُدبّب السقف، بمَرجة رائقة، مسوّرة خلف حاجز من الأوتاد البيض، وآخرون في ممشى مستودع، وهم مُتكّئون على سيارة فورد تي، فيما ظهر غيرُهم داخل أستديو تصوير وقد جلسوا على كرسي بمسند عال، مكتوفي الأيدي في وقار، وأنظارهم مركزة على العدسة، كأنهم متأهبون لغزو العالم. وقد وعدوا جميعًا بانتظارنا في سان فرانسيسكو، عند وصولنا إلى الميناء.

في الباخرة، كنا كثيرا ما نتساءل: هل سينالون إعجابنا؟ هل سنحبهم؟ هل سنتعرف إليهم من خلال صورهم حالما نبصرهم على الرصيف؟

في الباخرة، كنا ننام في الدرجة السفلى، ما بين سطحين، في مكان تلفّه الظلمة والقذارة معًا. وكانت أسرّتنا عبارة عن أفرشة معدنية ضيّقة يتكّدس بعضها على بعض، أفرشة ذات حشايا رقيقة مصفرّة من أثر رحلات أخرى، وتجارب حياتية أخرى. وكانت مساندنا محشوّة بالتبن الجاف. وما بين الأسرة يغطي فُتات الطعام الأرضيةَ الرطبة الزلقة. وحين يأتي المساء وتكون الكوّة التي في المكان مُغلقة، يمتلئ الظلام بالهمسات. هل سيُحدث ذلك ألما؟ كانت الأجساد تدور وتتقلّب تحت الأغطية. والبحر يعلو وينخفض. والمناخ الرطب يخنق الأنفاس. كنا في الليل نحلم بأزواجنا. نحلم بنعال خشبيّة جديدة، وبلفافات لا حصر لها من الحرير النيلي، وبالعيش في بيت ذي مدخنة. كنا نحلم بأننا طويلات القامة وجميلات. وبأننا عدنا إلى مزارع الأرز التي كنا نجهد للهرب منها. ولطالما كانت أحلام مزارع الأرز تلك، كابوسًا يليه كابوس. كنا نحلم أيضا بأخَوَاتنا، الأكبر منا سنّا، والأكثر حسنا،

Twitter: @ketab_n

أخَواتنا اللاتي باعهنّ آباؤنا «جايشات» لإطعام بقية العائلة، فنصحو وفي الحلق مرارة واختناق. للحظة، ظننت نفسي مكانها.

في الباخرة كنا نعاني المرض خلال الأيام الأولى، ومعداتنا لا تحتفظ بشيء، فلا ننفك نهرول باتجاه المتراس. بعضنا أصابهنّ الدوار بشكل أقعدهنّ عن القيام، فلزمن أسرّتهن في خمول كئيب، عاجزات حتى عن تذكر أسمائهنّ، فضلا عن أسماء أزواجهن المرتقبين. ذكّريني مرة أخرى، أنا زوجة مَن، قلتِ؟ بعضهن يضعن أيديهنّ على بطونهنّ ويبتهلن بصوت عال إلى كانّون إلهة الرحمة - أين أنتِ؟ - فيما تفضّل أخريات التألم وحدهنّ في صمت. وغالبا ما كنا ننتفض من النوم في جوف الليل على تلاطم الأمواج العنيف، وفي لحظة لا نعود ندري أين كنا، ولماذا لا تكفّ أسرّتنا عن التحرك، ولماذا تدق قلوبنا بعنف من شدة الرعب. هزة أرضية، ذلك أول ما يتبادر إلى أذهاننا. عندئذ نبحث عن أُمّنا لأننا تعودنا أن ننام دائما في حضنها. أهي نائمةٌ في هذا الوقت؟ هل تحلم؟ هل تفكر فينا ليل نهار؟ أما زالت تمشي في الشارع خلف أبينا بثلاث خطوات، ويداها محمّلتان بالأكياس، فيما لا يحمل هو أيّ شيء؟ هل تحسدنا في سرها على رحيلنا؟ ألم أعطكِ كلّ شيء؟ هل تفكر في تهوية ثياب الكيمونو القديمة؟ وفي إطعام القط؟ هل علمتنا كل ما نحتاج إليه؟ أمسكي صحفتك بكلتا يديك، لا تبقي تحت الشمس، لا تتكلمي أكثر ممّا ينبغي.

في الباخرة كنّا في مجملنا فتيات تامّات، مقتنعات بأنّنا سنكون أفضل الزوجات. فنحن نحسن الحياكة والطبخ، وتقديم الشاي، وعرض الأزهار، والمكوث جالسات ساعاتٍ وساعاتٍ دون أن نحرّك أقدامنا الكبيرة أو نتفوّه بكلام لا جدوى له. الفتاة ينبغي أن تذوب في المشهد: أن تكون حاضرة دون أن يلحظها أحد. كنا نحسن التصرف

Twitter: @ketab_n

أثناء المآتم، ونكتب عن قدوم الخريف أشعارا حزينة موجزة تعُدّ سبعة عشر مقطعا لفظيا بالضبط. وكنا نحسن قلع الأعشاب، وقطع الحطب، واستخراج الماء من البئر، بل إن إحدانا - بنت الطحّان - كانت قادرة على المشي ثلاثة كيلومترات حتى المدينة، وعلى ظهرها كيس أرز يزن خمسة وثلاثين كيلوغراما دون أن تعرق. السرّ كلّه في طريقة التنفس. كان خُلُقنَا حسَنًا على كلّ حال وسلوكنا مهذبا، إلا إذا انفجرنا غضبا وصرنا نجدّف مثل صيّادي السمك. وكنا نتحدث غالبا مثل السيدات، بصوت متعال، ونحن نتظاهر بأننا نعرف دون الواقع بكثير، وكلما مررنا على الجسر احتطنا للسير بخطى قصيرة، وذلك بسحب أصابع أقدامنا إلى الداخل كما ينبغي. فكم مرة كرّرت أمُّنا على مسامعنا: سِيري وكأنك في المدينة، وليس في الضيعة.

في الباخرة كنا نتلاصق في الأسرّة كلّ ليلة ونقضي الساعات في الحديث عن القارة المجهولة التي سنحلّ بها. الناس هناك، فيما يُروى، لا يتغذّون إلاّ باللحم وأجسادهم مكسوّة بالشعر (فيما كنّا نحن بوذيّات في معظمنا، لا نأكل اللحم وليس لنا شعر إلاّ في المواضع المناسبة). والأشجار هناك باسقة، والسهول مترامية، والنساء مهذارات وطويلات القامة - الواحدة منهنّ، حسب ما علمنا، تزيد على أطول رجل فينا بمقدار رأس -. لغتهم أكثر تعقيدا من لغتنا بعشر مرات وعاداتهم غريبة بشكل لا يصدّق. هم يقرؤون الكتب من النهاية إلى البداية، ويستعملون الصابون للاستحمام. ويتمخّطون في مناديل قذرة من القماش ثم يطوونها ويدسّونها في جيوبهم، لكي يقع استعمالها مرّات أخرى. واللّون الأبيض عندهم لا يُقابلهُ الأحمر بل الأسود. ماذا سيكون مصيرنا، تساءلنا في ما بيننا، في بلد مختلف بهذا الشكل؟ كنّا، ونحن الجمعُ القصير الذي لا يملك سوى كتبه،

Twitter: @ketab_n

نتخيّل نزولنا في بلاد العمالقة. هل سيسخرون منا؟ هل سيبصقون علينا؟ هل يحملوننا على الأقل محمل الجدّ؟ وعلى الرغم من كلّ ذلك، فإن أكثرنا احترازا يُقرِرّن في النهاية بأنّ الزواج من رجل غريب في أمريكا خيرٌ من العيش حتى الشيخوخة مع مُزارع في القرية. ذلك أن الفتيات في أمريكا لا يعملن في الحقول، فالأرز موجود بوفرة هناك وحطبُ التدفئة متوفّر لكل الناس. وحيثما ولّيت وجهك ترَ الرجال يمسكون الباب للنساء ويرفعون قبعاتهم وهم يقولون: «النساء أولا» و«بعدَك سيدتي.»

في الباخرة، بعضنا قدمن من كيوطو، كن بيضاوات السحنة لطيفات لأنهن قضّين حياتهن في غرف معتمة بعمق البيوت. وبعضهنّ جئن من نارا، وكنّ يتضرعن لأجدادهن ثلاث مرات في اليوم، ويقسمن أنهن لا يزلن يسمعن دقات نواقيس المعبد. بعضهن كن بنات مزارعين في منطقة يَمَغوشي، مناكبهن عريضة ومعاصمهن سميكة، ولا يتجاوزن التاسعة ليلا إلاّ وهنّ نائمات. وبعضهن كنّ من قرية جبلية صغيرة بمنطقة يَمَناشي ولم يكتشفن سكك الحديد سوى منذ وقت قريب. بعضهن قدمن من طوكيو، وقد رأين كل شيء، وهنّ يتكلّمن لغة يابانية جميلة جدا ولا يختلطن قط بالأخريات. كثير منهن كنّ من كاغوشيما ويتحدّثن بلكنة جنوبية وعرة، تتظاهر القادمات من طوكيو بعدم فهمها. وأخريات كنّ من هوكّايدو المعروفة بمناخها الثلجي البارد، وهنّ يحلمن من سنين بتلك المشاهد البيضاء. أمّا أولئك القادمات من هيروشيما التي سوف تشهد انفجار القنبلة، فقد كنّ محظوظات بوجودهن على ظهر هذه الباخرة، رغم أنه ما من أحد في تلك الفترة كان يعلم أيّ شيء. أصغرنا سنا تبلغ اثني عشر عاما ولم تحِض بعد. أهلي زوّجوني ليحصلوا على المهر. وأكبرنا سنا، كانت في

Twitter: @ketab_n

السابعة والثلاثين، وهي من نيغاطا، قضت عمرها في العناية بوالد معوق، جعلتها صدمةُ موته مؤخّرا سعيدةً وحزينة في الوقت نفسه. كنتُ أعرف أنني لن أتزوّج إلاّ إذا قضى نحبه. إحدانا جاءت من كوماموطو، حيث انقطع الرجال الأصحاء - كانوا قد رحلوا جميعا في السنة المنصرمة بحثا عن الشغل في منشوريا -، وتعتبر نفسها سعيدة بالعثور على زوج، أيّا ما يكن. تطلعتُ إلى صورته وقلتُ للخاطبة: «هذا يناسبني.» وأخرى كانت من قرية في منطقة فوكوشيما الشهيرة بغزل الحرير، مات زوجها الأول جَرّاء الزكام، وهجرها الثاني من أجل امرأة أصغر وأجمل كانت تقطن المنحدر الآخر للهضبة، وها هي تسافر نحو أمريكا للزواج من رجل ثالث. هو في صحة جيدة، لا يشرب، ولا يقامر، وذلك كل ما أحتاج إلى معرفته. واحدة من بيننا كانت راقصة في ناغويا، كانت فائقة الأناقة، وبشرتُها تكاد تشفّ من البياض، إنّها تعرف كلّ شيء عن الرجال، وهو ما جعلنا نتوجه إليها دون سواها كلّ ليلة لنطرح عليها أسئلتنا. كم وقتا قد يدوم ذلك؟ تحت الضوء أم في الظلام؟ الرِّجْلاَن مرفُوعتان أم موضوعتان؟ العينان مفتوحتان أم مغمضتان؟ وإن وجدتِ صعوبة في التنفس؟ أو أحسستِ بالعطش؟ وإن كان ثقيل الوزن؟ أو بالغ السمنة؟ افرضي أنه لا يرغبُ فيّ؟ «في الحقيقة، الرجال بسطاء جدا»، هكذا كانت تجيبنا. ثم تشرع في الشروح.

في الباخرة، كنّا نظلّ في بعض الأحيان يقظات ساعات كاملةً وسط الظلمة العميقة ورطوبة قعر السفينة، تمزّقنا المخاوفُ والرغبات، ونحن نتساءل كيف سنقوى على احتمال ثلاثة أسابيع.

في الباخرة، حملنا في حقائبنا كلّ ما نحتاج إليه في حياتنا الجديدة: كيمونو من الحرير الأبيض لليلة العرس، وكيمونو من القطن الملوّن

Twitter: @ketab_n

لسائر الأيام، وآخرَ أكثر احتشاما لاستعماله في خريف العمر. حملنا فرشًا للخطّ، وعُصيّات سميكة من الحبر الأسود، وأوراقًا رقيقة من ورق الأرز لكتابة رسائل مطوّلة لأهالينا. حملنا بوذا مُصغّرا من النحاس، وتمثالا صغيرًا من العاج يُمثّل الثعلب الإله، والدميةَ التي كنّا ننام بها حينما كنّا في سن الخامسة، حتّى قراطيس السكر المشيّط حملناها لقضاء المصالح عند الحاجة، وحملنا أغطية فاقعةً، ومراوحَ من الورق، وكتبًا تتضمّن جُملاً بالإنكليزية، وأكياسًا صغيرة من الحرير الزهري، حصى أسودَ صقله الوادي المُنساب خلف بيتنا حتّى صار أملسَ، خصلةَ شاب لمسناه ذات يوم وأحببناه ووعدناه بالمراسلة، ونحن نعلم أننا لن نفي بالوعد أبدا، ومرآةَ الفضة التي أعطتنا إياها أمُّنا، فيما كلماتها ما تزال ترنّ في الأذن. سترين: **النساء ضعيفات، ولكنّ الأمهات قويات.**

في الباخرة، كنّا نتذمّر من كلّ شيء. من البرغوث، من الأرق، من بقّ السرير. من هرير المحرّك الرتيب الذي يلاحقنا حتى في أحلامنا. كنّا نتذمّر من عفونة الكنائف - فوهات ضخمة مفتوحة على البحر - ومن رائحتنا التي كانت تنضج شيئا فشيئا وتزداد نتونةً كلّ يوم. كنّا نتذمر من تعجرف كازوكو، وشيو التي كانت تتنحنح باستمرار، ومن فوسايو التي كانت دائما تدندن لحن أغنية **قاطف الشاي**، وهو ما يجعلنا نجنّ شيئا فشيئا. كنا نتذمر من مشدّات شعرنا إذ تختفي - من السارقة فينا؟ - ومن كون الفتيات اللاتي يسافرن في الدرجة الأولى لم يتوجّهن إلينا، ولو مرّةً، بالتحية من الجسر الأعلى، من أعلى شمسيتهن الحريرية البنفسجية، رغم المرّات العديدة التي تقاطعت فيها مسالكنا. **ولكن من يحسبن أنفسهنّ، هؤلاء؟** كنا نتذمر من الحرّ، ونتذمر من البردِ. من الأغطية التي تثير الحكّ. ومن شَكاتنا

Twitter: @ketab_n

المتطاولة نفسها. ومع ذلك كنا في الواقع سعيدات جدا في عمومنا، لأننا سنكون عمّا قريب في أمريكا صحبة أزواجنا المرتقبين الذين راسلونا مرات كثيرة في الأشهر السابقة. اشتريتُ بيتا جميلا. يمكنكِ غرسُ زنابق في الحديقة. أزهار النرجس الأسلي. كلّ ما تشتهين. أنا أملك ضيعة. أنا أدير فندقا. أنا مدير بنك كبير. هجرتُ اليابان منذ سنين لتأسيس شركتي الخاصة، وأستطيع أن أوفّر كلّ احتياجاتنا بيسر. طولي متر وتسعة وسبعون سنتمترا، لا أشكو من جذام ولا من أمراض الرئة، ولا وجود لمجانين في عائلتي. أنا أصيل أوكاياما. أنا من هيوغو. مياجي. شيزووكا. نشأت في القرية المجاورة لقريتك، ولمحتك منذ سنوات في أحد المعارض. سأرسل إليك النقود لدفع عبورك في أقرب فرصة.

في الباخرة كنا نحتفظ بصورة زوجنا في رَصيعة بيضوية صغيرة الحجم معلّقة في رقبتنا بسلسلة طويلة. نحتفظ بها في كيس من الحرير، في حقة شاي قديمة، في صندوق من البرنيق الأحمر، في الظرف البني الكبير الذي جاءنا به من أمريكا. كنا نحملها معنا في أكمام الكيمونو، وأحيانا نتحسسها عبر النسيج للتأكد من أنّها موجودة فعلا. كنّا نحملها مضغوطة بين صفحات «مرحبا أيتها الآنسات اليابانيات!»، و«دليل المسافر إلى أمريكا»، و«عشر طرق لإمتاع الرجل»، وفي سفر قديم بالٍ للسوترا[1] البوذية، فيما دسّتها إحدانا، وهي مسيحية تأكل اللحم وتعبد إلها مختلفا ذا شعر طويل، بين صفحات توراة الملك جاك. وحين كُنّا نسألها من تُفضّل - الرجل الذي في الصورة أم السيد المسيح نفسه - ترسل نحونا بسمة غريبة وتجيب: «هو طبعا.»

(1) sûtra, sutra, soutra مأثورات بوذية وهندوسية يتخذها المريدون دروسا في الحياة ويستمدون منها مُثلا أخلاقية. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

في الباخرة، كانت كثيرات منّا يحملن أسرارا أقسمن بألاّ يبُحن بها لأزواجهن. لعلّنا في الواقع قررنا الذهاب إلى أمريكا للالتحاق بأب هجر عائلته منذ أمد بعيد. ذهب للعمل في مناجم الفحم بوايومنغ ولم تأتنا أخباره بالمرة. أو ربما تركنا خلفنا طفلة من رجل نكاد لا نذكر ملامح وجهه - راو جوّال قضى أسبوعا في قريتنا، راهب بوذي عابر نزل عندنا ليلة وهو في طريقه إلى جبل فوجي. وبالرغم من أننا كنا نعلم علم اليقين أنّ أهلنا سيعتنون بها، فإننا كنا نشعر بالذنب إذ آثرنا حياتنا الخاصة على حياتها هي،- إن بقيت هنا، في القرية، فلن تجدي زوجا أبدا هكذا كانوا يحذروننا، - وفي أثناء الرحلة، كنا نبكي حين نتذكرها ليالي وليالي، إلى أن جاء صبح أفقنا إثره على قرار: «كفى»، وصرنا نفكّر في أشياء أخرى. في الكيمونو الذي سنلبسه يوم وصولنا. في تسريحة شعرنا. في ما سنقوله حينما نلقاه. لأننا الآن على ظهر الباخرة، أمّا الماضي فقد بقي وراءنا، ولم تعد العودة ممكنة.

في الباخرة لم نكن نستطيع أن نعلم أننا سوف نحلم بها كل ليلة إلى أن نموت، وأنها في أحلامنا لا تزال في سن الثالثة وسوف تبقى هي هي كما تركناها: قامة صغيرة مكسوّة بكيمونو أحمر داكن، جاثية قرب بركة، مأخوذة برؤية نحلة ميّتة طافية على السطح.

في الباخرة كنا نأكل كل يوم الشيء نفسه ونتنفس باستمرار الهواء الزنخ ذاتَهُ. نؤدّي الأغاني نفسَها، ونضحك من الطُرَف ذاتِها، وعند الصباح، حين يكون الطقس رحيما، نغادر سراديبنا المكتظة لنتمشى على الجسر بصنادلنا الخشبية وكيموناتنا الصيفية، ونتوقف بين الحين والحين لتأمل زرقة البحر التي لا يحدّها بصر. أحيانا تهوي عند أقدامنا سمكة طائرة، تتلوّى مقطوعة الأنفاس، فتلتقطها إحدانا - بنت بحار في العادة - وتعيدها إلى اليمّ. أو تبرز لأنظارنا مجموعة

Twitter: @ketab_n

دلافين، تخرج فجأة من حيث لا ندري، وتظل تقتفي أثرنا ساعات وهي تقفز على طول الباخرة. وفي صبيحة يوم هادئ، بلا ريح، كان البحر خلاله صفحة ملساء كالزجاج، والسماء زرقاء زرقة ساطعة، شقّت خواصرُ حوت العنبر الملساء السود صفحة الماء قبل أن تغوص فيه من جديد، وفي لحظة، نسينا التنفس. **كان ذلك مثل التطلّع إلى عين بوذا.**

في الباخرة كنا نبقى الساعات الطوال على الجسر، والريح تعبث بشعرنا، نتابع مرور المسافرين الآخرين. كان ثمة سيخ معمّمون من إقليم البنجاب، يقصدون بَنَما هربا من أرضهم الأصلية. وأثرياء من الروس البيض يبحثون عن مهرب من الثورة. وعمال صينيون من هونغ كونغ في طريقهم إلى حقول القطن في بيرو. كنغ لي أوفانوفيتش وجماعته الشهيرة وقد كانوا يملكون مزرعة شاسعة بالمكسيك، ويُعَدّون أثرى عائلة بوهيمية في العالم. ثلاثة سياح ألمان أحرقتهم الشمس، راهب إسباني وسيم، وإنكليزي أحمر الوجه طويل يدعى تشارلز كان يصعد إلى الجسر كل يوم على الساعة الثالثة والربع لينشّط ساقيه مشيا بخطى واسعة. كان تشارلز يسافر في الدرجة الأولى، له عينان خضراوان غامقتان وأنف رقيق مدبب، ويتكلم اليابانية بطلاقة. كان أول رجل أبيض نشاهده. كان يدرس اللغات الأجنبية بجامعة أوساكا، متزوجا من يابانية أنجبت له طفلا، وقد زار أمريكا مرارا، وكان يقابلنا ويقابل أسئلتنا بكلّ رحابة صدر. هل صحيح أن للأمريكان رائحة حيوانات؟ (ضحك تشارلز وأجاب: «هل هي حالي ؟»، وتركنا ندنو منه لنشمه عن قرب.) هل هم كثيفو الشعر كما يُشاع؟ («هم تقريبا مثلي»، قال وهو يصفن كمّيه ليرينا ذراعيه المكسوتين بشعر أسمر، فسَرت القشعريرة إلى أجسادنا.) وهل لهم منه في صدورهم أيضا؟ (احمرّ وجه تشارلز وهو يشرح لنا أنه يتعذر عليه أن يكشف لنا

Twitter: @ketab_n

عن صدره، فاحمرّت وجوهنا نحن أيضا ورددنا عليه بأننا لم نطلب منه ذلك.) ألا تزال ثَمّة قبائل متوحشة من الهنود الحمر تهيم عبر البراري؟ (أوضح تشارلز أنهم ذهبوا بكل الهنود الحمر فأطلقنا آهة ارتياح.) هل صحيح أن النساء في أمريكا لسن مطالبات بالركوع عند أقدام أزواجهن أو وضع أيديهن على أفواههنّ عند الضحك؟ (أطال تشارلز النظر إلى سفينة تمخر الموج عن بعد، ثم تنهّد وقال: « نعم، للأسف.») هل يرقص الرجال مع النساء كامل الليل والخدّ يلاصق الخدّ؟ (مساء السبت فقط، قال.) هل أن خطوات الرقص صعبة جدا؟ (كلاّ، بل هي سهلة، وفي مساء الغد، قدم لنا درسا في رقصة الفوكس تروت على الجسر تحت ضوء القمر. **بطيئة، بطيئة، سريعة، سريعة.**) هل أن وسط سان فرانسيسكو أكبر من جينزا؟ (بطبيعة الحال!) هل للبيوت الأمريكية حجم يساوي حقا ثلاث مرات حجم بيوتنا؟ (بالفعل.) هل تملك كلها آلة بيانو في غرفة استقبالها؟ (قال تشارلز إنها فقط بيوت عادية.) وهل يعتقد أننا سنكون سعيدات هناك؟ (خلع نظارته ليتطلع إلينا بعينيه الخضراوين الجميلتين وأجاب: «أي نعم، سعيدات جدا.»)

في الباخرة لم تستطع بعضنا إقامة علاقات مع البحارة الذين ينحدرون من القرية نفسها، ويعرفون كلمات أغانيها، ولا ينفكّون يعرضون عليهن الزواج. فيجبن «نحن متزوجات بعد.» ، ولكنّ بعضهنّ وقعن في غرامهم. ولمّا طلبوا لقاءنا وجها لوجه - «الليلة، لنقل ما بين الجسرين، في العاشرة إلا الربع» -، أغضينا أبصارنا، سحبنا نفسًا طويلا وهمسنا بـ «نعم»، وهذا أيضا ممّا لا ننوي البوح به لأزواجنا. **كان ذلك بسبب الكيفية التي كان ينظر بها إليّ**، قلنا في أنفسنا من بعد. أو: **كان ذا ابتسامة جميلة.**

Twitter: @ketab_n

في الباخرة كانت إحدانا قد حملت دون أن تدري، ولكن عندما أطل الرضيع بعد تسعة أشهر، كان أول شيء لاحظته هو شبهه بزوجها. له عيناك. واحدة ألقت بنفسها في البحر بعد قضاء ليلة مع بحار، وتركت هذه الكلمات المقتضبة على وسادتها: لا يمكن أن يكون لي رجل آخر بعده. واحدة وقعت في هوى مُبَشّر ميتودي[1] صادفته على ظهر الباخرة وكان عائدا إلى موطنه، ورغم توسلاته إليها كي تهجر زوجها وتتبعه، فقد رفضت حال وصولهما إلى أمريكا. «لا بدّ أن أبقى وفية لقدري»، قالت له. ولكنها ظلت بقية حياتها تتساءل كيف يكون وجودها.

في الباخرة كان من بيننا من يميل بهن طبعهن إلى اجترار الأحداث، فيفضّلن البقاء في عزلة، ويقضين أغلب فترات الرحلة منبطحات يستعدن ذكريات الرجال الذين تركنهم خلفهنّ. ابن بائعة الفلال الذي يتظاهر دائما بكونه لا يعيرنا اهتماما، مع أنه يعطينا حبة تنجرين[2] إضافية كلما غابت أمه. أو ذلك الرجل المتزوج الذي انتظرناه مرة على الجسر، تحت المطر، في وقت متأخر من الليل، لمدة ساعتين. من أجل ماذا؟ قبلة، ووعد: «سأعود غدا.» وبالرغم من كوننا نعلمُ بأننا لن نراه، فقد كنا نعلم أيضا بأنّنا سنذهب للقائه مرّة أخرى، لو عاد الزمان إلى الوراء، لأن وجودنا بقربه يمنحنا الإحسان بأننا نحيا، لأول مرة، وبشكل أفضل. وغالبا ما كنا نخلد إلى النوم وفي البال صورة ابن المزارع الذي كنا نتجاذب معه الحديث كل يوم عند العودة من المدرسة - ذلك الشاب الوسيم من القرية المجاورة الذي تستطيع أصابعه أن تبرعم أكثر الحبوب عصيّا -، وأمهاتنا اللاتي كن يعرفن كل شيء، حتى قراءة أفكارنا، ينظرن إلينا وكأننا

(1) ميتودي: أحد أتباع الميتودية، وهي حركة دينية إصلاحية قادها في أوكسفورد تشارلز وجون ويزلي عام 1729 لإحياء كنيسة إنكلترا. (المترجم).

(2) Tangerine: نوع من الحوامض تشبه ثمرته حبة الكليمنتين. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

معتوهات. هل تريدين قضاء بقية حياتك جاثمة في حقل؟ (تردّدنا، كدنا نجيب بنعم، ألم نكن دائما نرغب في أن نصبح أمَّنا؟ أليس ذلك ما كنا نريده في فترة ما ؟)

في الباخرة فرضت بعض الخيارات نفسها علينا. أين ننام، من نمنحه ثقتنا، مع من نقيم علاقة وكيف نتعارف. هل يجب أن نقول للجارة إنها تشخر، وتتكلم أثناء النوم، وإن قدميها تنشران ريحا أكثر نتونة من أقدامنا، وإنها تترك ثيابها الوسخة ملقاة في كل مكان؟ وإن سألتنا إحدى الفتيات ما إذا كانت تسريحة شعرها مناسبةً لها -في شكل قوقعة على سبيل المثال، وهي آخر صيحة- والحال أنها ليست كذلك لأنها تجعل رأسها كبيرا، فهل نقول لها الحقيقة أو نقول بالعكس إنها أكثر جمالا من ذي قبل؟ وهل يمكننا الاحتجاج على الطباخ القادم من الصين ولا يعرف إلاّ طبقا واحدا - وهو أرز بالبهار الهندي- كان يقدمه لنا يوما بعد يوم؟ ولكن إذا شكوناه وأعِيدَ إلى الصين حيث لا يوجد أحيانا ما يؤكل لعدة أيام، فهل يكون ذلك ذنبنا؟ ثم هل سيستمعون إلينا؟ ببساطة هل يوجد من يهتم بشأننا؟

في مكان ما من الباخرة قبطان، تغادر مقصورته كل صباح فتاة حسناء فيما يقال. بطبيعة الحال كنا نتحرق شوقا كي نعرف: هل هي فتاة من بيننا أم بنت من الدرجة الأولى؟

في الباخرة كنا أحيانا نتسلل إلى أسرّة الأخريات في جوف الليل، ونظلّ مستلقيات في هدوء نستعيد ذكرياتنا هناك: رائحة البطاطا الحلوة المقليّة أوّل الخريف، خلوات النزهة وسط شجيرات الخيزران، ألعاب الظلّ والعفاريت في ساحة المعبد المنهار، يوم ذهب أبونا لجلب الماء من البئر ولم يعد، ثم أغلقت أمنا شفتيها عن ذكره، مرة واحدة وإلى الأبد. كأنه لم يوجد قط. وظللتُ أنظر في أعماق البئر سنين. كنا

Twitter: @ketab_n

نتحدث عن مراهم الزينة المفضلة لدينا، عن ميزات دقيق الرصاص، عن صورة زوجنا وأول مرة شاهدناه. **كان يبدو رصينا، قدّرت عندئذ أنه يناسبني.** أحيانا كنا نتفاجأ بذكر أشياء لم نبح بها من قبل لأحد، فإذا بدأنا لم نعد نستطيع التوقف، وأحيانا كنا نلزم الصمت فجأة ونتلاصق إلى الفجر، قبل أن تتملص إحدانا وهي تقول: «كم سيدوم هذا؟» ومرّة أخرى كان علينا أن نختار. إذا أجبنا بنعم، نواصل، ونعود إليها - إن لم يكن في تلك الليلة ففي الليلة الموالية -، ثم نقول في ما بيننا إنه مهما حدث في الباخرة، فسوف ننساه حال النزول. كل هذا كان والحق يقال يمنحنا نوعا من الخبرة بما سوف يأتي، مع زوجنا.

في الباخرة توجد من بيننا من لم يتعوّدن العيش مع رجل من قبل، ولو كان بالإمكان أن يذهبن إلى أمريكا دون زواج، فسوف يجدن لذلك وسيلة.

في الباخرة لم نكن نتصور أننا حين نلمح زوجنا لأول مرة، لن تحصل لنا أية فكرة عمّن يكون. وأن أولئك الرجال المتجمعين، الذين يعتمرون قلنسوات منسوجة ويرتدون معاطف سوداء بائسة، وينتظروننا على الرصيف، لا يشبهون في شيء الشبان الملاح في الصور. وأن الصور التي أرسلت في الظروف يرجع عهدها إلى عشرين عاما. وأن الرسائل التي بعثوا بها إلينا حرّرها آخرون، محترفون ذوو خط جميل يتمثل عملهم في سرد الأكاذيب للاستحواذ على القلوب. وأن إحدانا، حينما نُودي علينا بالاسم من ناحية الرصيف، غطت عينيها وهي تولي ظهرها - **أريد أن أعود إلى موطني** - ولكن الأخريات نكّسن رؤوسهنّ، ومسحن على كيموناتهنّ وعبَرن الجِسَيْر للنزول في ذلك اليوم الذي لا يزال فاترا. **ها نحن أولاء في أمريكا**، قلنا لأنفسنا، **لا ينبغي أن نقلق.** وكنا مخطئات.

Twitter: @ketab_n

الليلة الأولى

في تلك الليلة، أخذَنا أزواجُنا الجدد على عجَل. أخذونا بهدوء.[1] بلطف وحزم، دون أن ينطقوا بكلمة. اعتقادا منهم بأننا عذارى، كما وعدتهم الخاطبات، عاملونا بعناية فائقة. قولي لي هل هذا يؤلمك. أخذونا على الأرض، على البلاطة العارية لموتيل[2] ميونيت. في المدينة، في غرف من الدرجة الثانية بحانة كوماموطو. في أفخر فنادق سان فرانسيسكو حيث كان يسمح في تلك الفترة لشاب أصفر بالدخول. في فندق كينوكونيا. في ميكادو. في فندق أوغاوا. كنا على ملكهم وكانوا يفترضون أننا سنفعل كل ما يطلبونه منا. رجاء، **دوري نحو الحائط واركعي على أربع**. أخذونا من المرفق وهم يقولون: «حان الوقت.» أخذونا قبل أن نكون جاهزات فأصابنا من ذلك نزيف طيلة ثلاثة أيام. أخذونا وكيموننا الحرير الأبيض مرفوع على رؤوسنا وخلنا أننا سنموت. **خُيّل إليّ أنّي سأختنق**. أخذونا بشراهة ونهم، كأنهم كانوا ينتظرون تلك اللحظة منذ قرون. أخذونا والحال أننا ما زلنا نعاني من غثيان العبور، وما زالت الأرض تتراقص تحت أقدامنا. أخذونا بعنف، باللكم، كلما حاولنا التمنع. أخذونا ونحن نعضّهم. نضربهم. نشتمهم -**أنت لا تساوي حتى إصبع أمّك**- ونحن نطلب النجدة (لم

(1) نلفت انتباه القارئ هنا إلى أنّ الكاتبة تستعمل ضمير المتكلّم الجمع «نحن» للتعبير عن مختلف حالات المهاجرات وإن كانت متناقضة. (المترجم).

(2) موتيل: فندق على الطريق العام. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

يأت أحد). أخذونا والحال أننا جاثيات عند أقدامهم، ووجوهنا على الأرض، نتوسل إليهم بأن ينتظروا. **ألا تستطيع أن تترقّب حتّى الغد؟** أخذونا على حين غرّة، لأن بعضا منا لم تخبرهن أمهاتهن بما ينتظرهن بالضبط. **كان عمري ثلاث عشرة سنة ولم يسبق لي أن نظرت إلى رجل في عينيه.** أخذونا وهم يرجوننا أن نغفر لهم خشونة أيديهم، فأدركنا ساعتها أنهم مزارعون وليسوا صيرفيين. أخذونا بهدوء، ونحن منحنيات على النافذة نمتع النظر برؤية أنوار المدينة من تحت. «هل أنت سعيدة؟» تساءلوا. أوثقونا وأخذونا ووجوهنا على الأرض، فوق زربية بالية تذفَر العفونة وخرء الفئران. أخذونا باهتياج على ملاحف مبقّعة بالأصفر. بيسر وبلا مشاكل، لأن من بيننا من سبق لها أن عاشت التجربة أكثر من مرة. تحت تأثير الكحول. بعنف، دون أدنى اعتبار، فلا يهمّهم في شيء إن كانوا يؤلموننا. **خلت أن فرجي سينفجر.** أخذونا والحال أننا نصرّ أفخاذنا ونتوسل إليهم: «لا، أرجوك.» باحتياط كبير، كأنهم يخشون تهشيمنا. **أنت صغيرة جدا.** بلا مشاعرٍ وبلا إتقان -**بعد عشرين ثانية، سوف تفقد التحكم**- وعلمنا أنّ أخريات كثيرات قد مررن بهم قبلنا. أخذونا ونحن نحدّق في السقف، غير مكترثات، ننتظر أن تنتهي العملية، ولم نكن ندري أنها ستدوم سنوات. أخذونا بمساعدة صاحب الفندق وزوجته اللذين كانا يشدانا إلى الأرض لكي لا نهرب. **لن يرضى بك أي رجل آخر حينما ينهي العملية.** أخذونا كما يأخذ أبونا أمَّنا كلّ ليلة في الحجرة الوحيدة لكوخنا في القرية: فجأة، ودون سابق إنذار، في اللحظة التي نخلد فيها للنوم. أخذونا تحت ضوء الفانوس. تحت ضوء القمر. في الظلام، ولم نكن نبصر شيئا. دام ذلك ستّ ثوانٍ، ثم انهاروا علينا وهم يزفرون في اختلاج، قلنا في أنفسنا: **هذا هو إذن؟** دام ذلك

Twitter: @ketab_n

ساعات وكنا نعلم أننا سوف نتألم طوال أسابيع. أخذونا ركوعا، ونحن متشبثات بخشب السرير، ونبكي. أخذونا وهم يركزون انتباههم بوحشية على نقطة غامضة بالجدار لا يراها سواهم. وهم يهمسون بلا انقطاع «شكرا» في لهجة توهوكو الأليفة لدينا وهو ما جعلنا في وضعية مريحة. **خُيّل إلي أنّي أسمع والدي.** أخذونا وهم يصرخون في لكنة هيروشيمية سمجة نكاد لا نفهمها، وعرفنا ساعتها أننا سنقضي بقية عمرنا مع صيّاد سمك. أخذونا وقوفا، أمام المرآة، وهم يلحّون كي نتطلع إلى انعكاس صورتنا. «مصيرك أن تحبّي هذا.» هكذا كانوا يقولون. أخذونا بلياقة، وهم يمسكون معاصمنا ويرجوننا ألا نصرخ. باحتشام، وبصعوبة جمّة، وهم يتساءلون كيف يفعلون. «اعذريني.» هذا ما يقولون. ثمّ: «هذا أنت؟» ثم: «ساعديني»، واستجبنا. أخذونا بتأفف. بزمجرة. بصراخ، وآهات مديدة. بالتفكير في نساء أخريات -كنا نعرف ذلك بسبب تلك المسافة في نظراتهم- ثم لعنونا حينما اكتشفوا ألاّ أثر للدم في الملاحف. أخذونا برعونة، فلم نسمح لهم بلمسنا طوال أعوام ثلاثة. أخذونا بخفة لم نعهدها من قبل، وأدركنا أننا سوف نشتهيهم على الدوام. أخذونا فصرخنا من فرط اللذة، ثم كمّمنا أفواهنا حياء. أخذونا بسرعة، وتكرار، كامل الليل، وحينما صحونا في الصباح صرنا ملكا لهم.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

البيض

كنا نستقر بأطراف المدن، عندما يسمحون لنا. وإذا تعذّر ذلك -**عليكم بمغادرة هذا المكان قبل غروب الشمس، كانت لا فتاتهم تقول**- نواصل طريقنا. كنا نهيم من مخيم إلى آخر رفقة أزواجنا الجدد ، نهيم عبر وديانهم الحارقة المغبرة -ساكرمنتو، إمبرّيَل، سان واكين- لخدمة أراضيهم. نقطف الفراولة في واطسونفيل. والعنب في فريسنو ودينير. ونقعي على ركبنا ونحنُ نقلّع البطاطا برفوش في باكون أيلند بالدلتا حيث الأرض رخوة كالإسفنجة. كنا نفرز الفاصوليا الخضراء في هولاند تراكت، وعندما ينتهي الجني، نضع أغطيتنا على ظهورنا ونحمل أكياس ملابسنا بأيدينا، وننتظر مرور القطار لنمضي إلى مكان أبعد.

ووتر، الماء، هي أول كلمة تعلّمناها من لغتهم. «قوليها بصوت أعلى، كان أزواجنا يقولون لنا، حالما تحسّين بالألم في الحقول. احفظي جيدا هذه الكلمة، لأنها ستنقذ حياتك.» توصّلنا جميعًا إلى حفظها، باستثناء يوشيكو التي نشأت على أيدي مرضعات خلف الجدران العالية لمجلس في كوبي ولم تر في حياتها عشبة طفيلية واحدة. فقد استلقت في نهاية يومها الأول بمزرعة ماربل، ولم تنهض بعدها أبدا. «ظننتها نائمة»، هكذا قال زوجها، في حين شرح صاحب الضيعة أنها «سكتة قلبية». وسرعان ما نهشت الحمّى واحدة أخرى كانت تخجل كثيرا من رفع عقيرتها، لذلك جلست على الأرض لتشرب

Twitter: @ketab_n

من قناة الريّ. فلم تمض سبعة أيام حتّى كانت طريحة الفراش بعد أن اجتاحتها الحمّى التيفيّة. وفي وقت وجيز بدأنا نتعلّم بعض الكلمات الأخرى: «هذا أمر جيّد» وهي العبارة التي كان ربّ العمل يقولها حين يكون راضيا عن عملنا -أو «عودي إلى بلدك»- حين يجدنا بطيئات جدا أو عديمات المهارة.

كان بيتنا عبارة عن سرير مخيم في تخشيبة بفير رانش، في يولو. وفي كيتلمان كان خيمة طويلة تحت شجرة برقوق وارفة. أمّا في لودي فقد كان مبيتا من الألواح بالمخيم رقم 7 ببراهارت تراكت. **لا شيء سوى صفوف من البصل لا يحدها بصر**. فراشًا من القشّ بزريبة جون لايمان، جنبا إلى جنب مع خيوله وأبقاره. رُكنَ مغسل بكانّري رانش في ستوكتن. مَرْقَدًا بعربة قطار بضائع صدئ في لومبوك. قنّ دجاج قديم كان يسكنه الصينيون قبلنا في ويللوز. حشيةً تغزوها البراغيث في مخزن بديكسون. كومةً من التبن موضوعة على ثلاثة صناديق تفاح تحت شجرة تفاح ببستان فريد ستادلمان. فضاءً بمدرسة مهجورة في ماريسفيل. قطعة أرض وسط أشجار كمثرى في أوبورن، غير بعيد عن ضفاف أمريكان ريفر، حيث كنا نقضي الليل مستلقيات نتأمل النجوم الأمريكية التي لا تختلف عن نجومنا: هناك، في الأعالي، فوقنا بكثير، تلمع ألتاير، فيغا -نسّاجة الأسطورة وراعي البقر-، وكذلك المشتري وعطارد. «خط العرض هو نفسه» يفسر لنا أزواجنا. باختصار كان بيتنا حيث يكون المحصول ناضجا. حيث يوجد أزواجنا إلى جانب الرجل الذي يعزق الأرض ويقتلع الأعشاب الطفيلية منذ سنين لفائدة ربّ العمل.

في البداية، كنا لا نكفّ عن التساؤل. لماذا يركبون خيولهم من جهة اليسار وليس من جهة اليمين؟ كيف يمكن أن يميّز بعضهم بعضا؟

Twitter: @ketab_n

لماذا يصرخون دائما؟ هل صحيح أنهم يعلّقون على الجدران أطباقا بدل اللوحات؟ وأن لهم أقفالا في أبوابهم؟ وأنهم يحتفظون بأحذيتهم داخل البيوت؟ عمّ يتحدثون في الليل قبل النوم؟ بم يحلمون؟ من يعبدون؟ كم لهم من إله؟ أصحيح أنهم يرون رجلا على القمر بدل أرنب؟ وأنهم يأكلون مرقا بلحم الثيران أثناء الجنائز؟ وأنهم يشربون حليب البقر؟ وتلك الرائحة؟ ما هي؟ « إنهم يذفرون رائحة الزبدة» هكذا يشرح لنا أزواجنا.

لا تقربيهم، نبّهنا أزواجنا. وإن اضطررتِ فاحذريهم. لا تصدقي دائما كل ما يقولون ولكن تعلّمي أن ترقبيهم عن قرب: أيديهم، عيونهم، زوايا شفاههم، تغير ألوان سحنتهم. عمّا قريبا، ستعرفين كيف تقرئينهم. حذار أن تطيلي النظر إليهم. بمرور الوقت، ستتعودين على قاماتهم. توقعي منهم كل مكروه، ولكن لا تستغربي أن يكونوا لُطفاء أحيانا، فالطيبة موجودة في كل مكان. لا تنسي أن تُريحيهم. كوني متواضعة. مهذبة. كوني دائما جاهزة لإسعادهم. أجيبي بـ: «نعم، سيدي» أو «لا، سيدي» وافرغي ممّا يطلبون منك. والأحسن ألاّ تقولي شيئا أبدا. الآن صرتِ في عداد الأشباح.

كانت محاريثهم صعبةَ التحريك، بل أثقل وزنا منّا، وخيولهم ضِعْفَ خيولنا في اليابان. لذلك كنا نضطر إلى تسلّق صناديق البرتقال لإسراجها، أو الصعود على كرسي، ولمّا وجّهنا لها أوامرنا أوّل مرّة، اكتفت بإرسال أنفاسها وكشط الأرض بحوافرها. هل هي صمّاء؟ أهي حمقاء؟ أم هي عنيدة بكلّ بساطة؟ «إنها خيول أمريكية، شرح لنا أزواجنا. هي لا تفهم اليابانية.» فتعلّمنا لأجلها هي أيضا كلماتنا الأولى بالإنكليزية. كلمة «هي» لجعلها تتقدم، و«هيهو» كي تتقهقر. «هو» حين نريد منها أن تخفّض السرعة، و«هولا» لكي تتوقف.

Twitter: @ketab_n

ولعلّ تلك الكلمات هي الكلمات الوحيدة التي تعلّمتها بعض النسوة منا طوال خمسين سنة.

في الباخرة، تعلّمنا بعض تعابير لغتهم بفضل الأدلة التي كانت بحوزتنا - **هيلّو**، «مرحبا»، **بيغ بردون**، «معذرة»، **بليز باي مي ماي ويجز**، «من فضلك ادفع لي أجرتي» - وكنا نستطيع أن نحفظ عن ظهر قلب أبجدياتهم، ولكنّ كلّ تلك العبارات سرعان ما تهافتت على أرض الواقع ولم يعد لها أيّ معنى. لم نكن قادرات على قراءة مجلاتهم أو صحفهم، فاكتفينا بتأمّل الحروف في يأس. **كلّ ما أذكره أنها تبدأ بحرف** e. وحين يتوجه إلينا رب العمل، كنا نسمع الكلمات جيّدا ولكن لم يكن لها في آذاننا أيّ معنى. وفي المناسبات النادرة التي كان علينا أن نلفت انتباههم إلينا -**مستر سميش؟**- يفتحون عيونهم على وسعها أمامنا، ويهزون أكتافهم وينصرفون.

لا تيأسي. اصبري. حافظي على هدوئك. ولكن في الوقت الحاضر دعيني أتكلم عوضا عنك. هذا ما يقوله لنا أزواجنا لأنهم يحذقون اللغة الإنكليزية. ويفهمون العادات الأمريكية. لذلك، كلما احتجنا إلى ملابس داخلية، يغالبون كبرياءهم، ويعبرون الحقول الحارقة حتى المدينة، ويتوجّهون إلى الباعة بلغة إنكليزية سليمة وقويّة اللكنة: «ليس لاستعمالي الخاص.» هكذا كانوا يشرحون. وعندما نصل إلى ضيعة جديدة، ويحدجنا صاحبها باستعلاء: «إنها ليست صلبة»، ينبري أزواجنا لإقناعه بالعكس. «في الحقول، زوجتي تساوي رجلا»، يؤكدون، وفي الحال تثبت الأفعال ما قالوا. وعندما هدّتنا حمّى الملاريا، وصرنا عاجزات عن رفع رؤوسنا عن الأرض، كان أزواجنا أيضا هم الذين يذهبون إلى رب العمل لإعلامه بأننا مريضات: «في البداية، كانت ساخنة، ثم صارت باردة، ثم صارت ساخنة مرة أخرى.» وعندما

Twitter: @ketab_n

يقترح رب العمل بأن يذهب بنفسه إلى المدينة بعد الظهيرة ليشتري الدواء الذي نحتاج إليه -«لا تشغل بالك بتكلفة الدواء»- فيشكره أزواجنا بإطناب. وعلى الرغم من أنّ هذا الدواء يجعل بولنا أحمر داكنا طوال أيام، فإننا نتعافى.

بعض منّا كنّ يعملن بسرعة ليُثرن الإعجاب. لكي نريهم أنّ لنا سرعة الرجال، إنْ لم يكن أكثر، في قطف البرقوق وقطع الشمندر ووضع البصل في أكياس والثمار الحمراء في صناديق صغيرة. وأخريات لأنهن قضّين طفولتهن حافيات، منحنيات في حقول الأرز، فاكتسبن المهارة اللازمة منذ الصغر، واكتسبتها أخريات لأن أزواجهن حذّروهنّ بإعادتهن إلى البلاد في أول باخرة إذا لم يمتثلن للأوامر. بعض منا قدمن من المدينة ولم يسبق لهنّ استعمال المجرفة من قبل، فكنّ يعملن بتؤدة. «هذا أسهل عمل في أمريكا.» تخيّلوا هذا ما كان يقال لنا، حتّى أنّ بعضًا ممّن كُنّ طوال حياتهن ضعيفات سريعات المرض، صرن بعد أسبوع واحد قضّينه في غابات الليمون بريفر سايد أشدّ من ثور. إحدانا فقدت وعيها قبل قلع أعشاب صفها الأول. وأخريات كن يجهدن في العمل باكيات حتّى كدن يكفرن بكلّ شيء. كنا نتعذب جميعا، أيدينا المنفّطة تنزف دما، رُكبنا تلتهب، ظهورنا لا تبرأ من آلامها أبدا. إحدانا كانت تتسلى عن شغلها بذلك الهنديّ الوسيم الذي كان يقطع نبات الهليون في الثلم الموالي، ولم يكن بوسعها أن تمنع نفسها من تمني إزالة العمامة البيضاء عن رأسه الكبير الأسمر. أحلم بغوبْتاسان كل ليلة. أثناء العمل، بعضنا كنّ يرتّلن مقاطع من السوترا البوذية فتمر الساعات مثل الدقائق. وكانت إحداهنّ، وهي أكيكو التي تعلمت في بعثة بطوكيو، وتتكلم الإنكليزية وتقرأ لزوجها التوراة كل مساء، تغني **تسامَيْ يا روحي**،

Twitter: @ketab_n

تسامَيْ. كثيرات منّا كن يردّدن نفس أغاني الحصاد التي كن يغنّينها في طفولتهن، وهن يحاولن أن يتمثّلن عودتهن إلى اليابان. ماذا يحدث لو قال لنا أزواجنا الحقيقة في رسائلهم؟ ماذا يقع لو قالوا إنهم ليسوا تجارا في صناعة الحرير بل جناة ثمار؟ ماذا ينجرّ لو صارحونا بأنّهم لا يعيشون في بيوت واسعة ذات غرف عديدة بل في خيام ومستودعات حصيد وحتى حقول، في العراء؟ لو فعلوا ذلك لما جئنا إطلاقا إلى أمريكا للقيام بشغل لا يقبله أي أمريكي يحترم نفسه.

كانوا مُعجبين بظهورنا القوية وأيدينا الخفيفة، مُعجبين بطاقة تحمّلنا. بنظامنا. باستعداداتنا الطيعة. بقدرتنا النادرة على تحمّل القيظ الذي يبلغ أحيانا خمسين درجة ولا سيّما خلال فصل الصيف بحقول البطيخ ببراولي. كانوا يقولون إن قامتنا القصيرة تناسب تماما الأعمال التي تضطرّ المرء إلى الانحناء حتى الأرض. وكانوا مبتهجين بنا حيثما وجّهونا. فنحن نمتلك فضائل الصينيين في نشاطهم وصبرهم ولياقتهم الدائمة، ولكنّنا دونهم في الخبائث، إذ لم نكن نقامر أو نتعاطى الأفيون أو نتشاجر أو نبصق. كنا أسرع من الفيليبّينيّين وأقل عجرفة من الهنود. أكثر تهذيبا من الكوريين. وأقل صخبا من المكسيكيين. وكان إطعامنا أقل تكلفة من النازحين من أوكلاهوما وأركنساس، سواء كانوا من الملونين أو من غيرهم. **الياباني يستطيع أن يعيش على ملعقة أرز في اليوم. وهكذا كنا أفضل فصيلة عمال شغّلوها طوال حياتهم. إذا حضر هؤلاء القوم، فلا حاجة لنا للاهتمام بهم إطلاقا.**

كنا أثناء النهار نعمل في بساتينهم وحقولهم. أمّا في الليل فقد كنّا نعود إلى موطننا أثناء النوم. مرّات، كنّا نحلم بأننا عدنا إلى القرية، حيث ندفع دولابا معدنيا في شارع التجار الأثرياء بعُصيّتنا المتفرعة

Twitter: @ketab_n

التي نفضلها. و مرّات، نلعب لعبة التخبئة على عدوة الوادي. ومن حين إلى آخر كنا نلمح مرور شيء ما يحمله التيار. وشاح من الحرير الأحمر ضاع من سنين. ثور أزرق مرقّش، وسادة أمي الخشبية. سلحفاة غادرت البيت حين كنا في الرابعة من العمر. أحيانا كنا نقف أمام المرآة مع أختنا آي التي يعني اسمها في ما يعنيه «حبّ» أو «غَمّ» بحسب الطريقة التي يُكتب بها، نقف معها وهي تضفر شعرنا. «لا تتحركي !» كانت تقول. وكل شيء كان كما ينبغي أن يكون. ولكنّنا، حين نصحو، نجد أنفسنا ممددات حذو رجل غريب في بلد غريب، في إسطبل مكتظّ، مليء بزمجرات الآخرين وتنهداتهم. في بعض الأحيان، يضع الرجل علينا أثناء نومه يديه الخشنتين العجراوين، فنحاول ألا نفكّ أنفسنا من عناقه. **عشر سنوات لا غير، ويشيخ بعدها**، هكذا كنا نقول في سرنا. وأحيانا كان يفتح عينيه في ضياء الفجر، ويرى حزننا فيعدنا بأن الأمور ستتغير. وعلى الرغم من كوننا قبلها بساعات فقط كنّا نصرخ في وجهه: «أنا أكرهك» وهو يركبنا في الظلام، فإنّنا نسمح له بمواساتنا لأنه كلّ ما لدينا. وأحيانا يصادف أن يحوّل نظره جانبا دون أن يرانا، وكان ذلك أمرّ وأدهى. **هل ثمّة من يشعر بوجودي هنا؟**

طوال الأسبوع كانوا يرهقوننا بالعمل في الحقول، ويتركوننا يوم الأحد نأخذ بعض الراحة. وفيما كان أزواجنا يذهبون إلى المدينة، ليلعبوا الفَنْتان[1] في صالونات اللعب الصينية، حيث يكسب المحل في كل الحالات، كنا نجلس عند جذع شجرة بأقلامنا وفُرَشنا لنكتب على صفحات طويلة رفيعة من ورق الأرز رسالةً إلى أمّنا التي وعدناها بألاّ نهجرها البتة. **نحن الآن في أمريكا، حيث نقلع الأعشاب الضارة لصالح رجل ضخم الجثة يدعى المعلّم. لا توجد أشجار توت هنا**

(1) Fantan : لعبة ورق صينية. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

ولا أجمة خيزران، ولا تماثيل جيزو على حافة الطرقات. الهضاب داكنة ناشفة والمطر نادر. الهضاب بعيدة. نحن نعيش على ضوء لمبات البترول، ومرةً في الأسبوع، يوم الأحد، نغسل ثيابنا على حجر الجدول. زوجي ليس الرجل الذي في الصورة. زوجي يكبر الرجل الذي في الصورة بأعوام. الرجل الوسيم في الصورة هو الصديق الودود لزوجي. زوجي سكّير. زوجي هو صاحب نادي يَمارو وصدره مغزوّ بالوشم. زوجي أقصر ممّا يبدو في الصورة، ولكن لا يهم، فأنا أيضا قصيرة. زوجي حصل على الدرجة السادسة من الوسام الذهبي للطيارات الورقية أثناء الحرب الروسية اليابانية، وهو الآن يعرج. زوجي دخل هذه البلاد عبر الحدود المكسيكية بصفة غير شرعية. زوجي عبَر المحيط خفية، ثم غادر السفينة في سان فرانسيسكو عشية زلزال 1906 وفي كل ليلة يحلم أن عليه أن يركب البحر من جديد. زوجي يعشقني. زوجي لا يتركني وشأني أبدا. زوجي رجل طيب يضاعف الجهد حينما يراني عاجزة عن مسايرة النسق، لكي لا يعيدني رب العمل إلى البيت.

في السرّ، كنا نتمنى أن ننجو. قد نكون وقعنا أثناء العبور في غرام مسافر قادم من نفس الجزيرة التي قدمنا منها، لا يزال يذكر الجبال نفسها والجداول نفسها، ولا نملك أن نطرده من أذهاننا. كل يوم، كان يقف بجانبنا على الجسر ويقول لنا كم نحن جميلات، ذكيات، مختلفات بشكل فائق! لم يصادف في حياته امرأة مثلنا. كان يقول لنا: «انتظريني. سوف أرسل من يأتي بحثا عنك حالما أقدر.» قد يكون عاملا متعاقدا مع كورتيز، أو رئيس شركة تصدير واستيراد في وسط سان خوسي، وفي كل يوم، كنا نحفر بأيدينا الأرض السوداء التي أحرقتها الشمس ونحن نتضرع كي تأتينا أخيرا رسالته. ولكن

Twitter: @ketab_n

كل يوم، لا يأتينا أي شيء. أحيانا، في آخر المساء، ونحن نتهيأ للنوم، نجهش فجأة بالبكاء، وأزواجنا ينظرون إلينا في حيرة وهم يتساءلون: «هل قلتُ ما يسيء؟»، فنومئ بالنفي. ولكن عندما وصلت أخيرا رسالة رجل الباخرة، ذات يوم، عبر البريد -**أرسلت بعض المال إلى زوجك وسأنتظرك في فندق تايشو** -، اضطررنا إلى أن نحكي كل شيء لأزواجنا. جلدونا بالأحزمة مرارا عديدة وهم ينعتوننا بنعوت مقذعة نستحقها، ولكنهم تركونا في نهاية الأمر نرحل. لأن المبلغ الذي أرسله رجل الباخرة يفوق بكثير ما أنفقوه لاستقدامنا من اليابان. «الآن على الأقل، سيعيش أحدنا سعيدا، هكذا قالوا لنا. ولكن لا شيء يدوم. حين نظرت في عينيك أول مرة، كان عليّ أن أفهم أنهما عينا عاهرة.»

أحيانا كان رب العمل يأتينا من الخلف ونحن منحنيات على الزراعات، ليهمس في آذاننا بعض الكلام. وحتى إن كنا لا نفهم أي كلمة مما يقول، فنحن نعلم بالضبط ما يريد. وكنّا نكتفي بالإجابة «أنا لا أتكلم الإنكليزية»، أو: «آسفة، سيدي، ولكن لا.» وفي بعض المرات، يقبل من حيث لا ندري مواطن حسن الهندام ليعرض علينا مرافقته إلى المدينة. **لو تقبلين العمل لفائدتي فسوف أدفع لك عشرة أضعاف ما تكسبينه في الحقول.** أحيانا يراودنا رجل أعزب من أصدقاء زوجنا أثناء غيابه ويدسّ في جيبنا ورقة من فئة خمسة دولارات. «دعيني فقط ألجك، كان يقول. أعدكِ بأني لن أتحرك.» وكنا من حين إلى حين نرضخ. «انتظرني غدا مساء خلف مخزن السلطة على الساعة التاسعة.» كنا نجيب. أو: «أفعل ذلك مقابل خمسة دولارات أخرى.» ربما كنا شقيات مع أزواجنا الذين ينصرفون للشرب ولعب الورق كل مساء ولا يعودون إلا في وقت متأخر. أو ربما لأننا نضطر لإرسال بعض المال إلى العائلة فقد أتلفت الفياضانات محصول الأرز مرة أخرى.

Twitter: @ketab_n

خسرنا كلّ شيء ولم يبق لنا من قوت نقيم به أودنا غير لحاء الشجر والإنيام[1] المطبوخ. حتى اللاتي ليس لهن نصيب من جمال كنّ غالبا ما يتلقّين في الخفاء هدايا صغيرة: مشدّ شعر من درق السلاحف، قنينة عطر، نسخة من مجلة مودرن سكرين سرقت من محل بالمدينة حيث تساوي السلع عشرة سنت للقطعة الواحدة. وكنا ندرك أننا إذا قبلنا تلك الهدايا دون أن نعطي شيئا في مقابلها، فسوف نعرّض أنفسنا للخطر. **قطع طرف إصبعها بمقص البستاني.** لذلك تعلمنا أن نفكر مرتين قبل أن نقول نعم، ونتفرّس أي رجل آخر في عينيه، فلا شيء مجّانيّ في أمريكا.

بعضنا كن يشتغلن طباخات في مخيمات العمال، وأخريات يقمن بغسل الأواني، فيلوّثن بذلك أيديهن الناعمة. بعضهنّ نُقِلن إلى وديان بعيدة لجزّ صوف الأغنام. قد يكون أزواجنا استأجروا ثمانية هكتارات من شخص يدعى كالدويل كان يملك منها آلافا في قلب وادي سان خواكين، ونحن مطالبون كل عام بتسليمه ستين في المائة من محصولنا. كنا نعيش في كوخ من الطين تحت شجرة صفصاف، وسط حقل بلا سياج، وننام على حشايا من القشّ. كنا نقضي حاجتنا في حفرة خارج الكوخ، ونغرف ماءنا من بئر. نقضي أيامنا في غرس الطماطم أو جمعها من شروق الشمس إلى غروبها، ولا نكلم أحدا عدا أزواجنا لأسابيع متتالية. كان لنا قط يؤانسنا ويطرد الفئران، وفي المساء، حين نمد البصر ناحية الغرب، نلمح نورا شعشعا يلوح عن بعد. هناك، قال لنا أزواجنا، يعيش الناس. فندرك أنه ما كان علينا أن نغادر موطننا. ولكن مهما نادينا أمّنا بكلّ ما نملك من قوة، فنحن نعلم أنها لا يمكن أن تسمعنا، لذلك كنا نحاول أن نجني أكبر فائدة

(1) إنيام: جنس نباتات معمّرة، درناتها نشوية تصلح للأكل. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

ممكنة مما لدينا. كنا نقتطع من المجلات صور مرطبات نلصقها على الجدران. ونخيط ستائر من أكياس الأرز المبيضة. ونصنع هياكل بوذية من صناديق طماطم في وضع مقلوب، مغطاة بالقماش، وفي كل صباح، نترك فنجانا من الشاي الساخن لأجدادنا. في نهاية الحصاد، نقطع مشيا ستة عشر كيلومترا باتجاه المدينة لنمنح أنفسنا هدية صغيرة: زجاجة كوكا كولا، مئزر جديد، قلم أحمر الشفاه، على أمل استعماله ذات يوم. ربما أدعى إلى حفل موسيقي. في بعض الأعوام، كانت المحاصيل جيدة والأسعار مرتفعة، وهو ما جعلنا نكسب مالا أكثر ممّا كنا نأمل. مائتان وخمسون للهكتار الواحد. وفي أعوام أخرى، كنا نخسر كلّ شيء بسبب الحشرات، أو الفطريات، أو شهر من الأمطار الساحية، أو لانهيار سعر الطماطم، وهو ما يضطرنا إلى بيع أدواتنا لتسديد الديون. عندئذ نتساءل ماذا نفعل هنا. «كنت مجنونة حين رضيت بمرافقتك إلى الريف»، كنا نقول لأزواجنا. أو «أنت تفسد عليّ شبابي.» ولكن عندما يسألوننا عمّا إذا كنا نفضل العمل خادمات في المدينة، كنّا ننفي ذلك فورا ونبتسم، وننحني دون أن نجيب بغير: «نعم، سيدتي، نعم سيدتي»، كامل اليوم.

لم يكن يرضون بنا أجوارا في وديانهم. ولا هم يرضون بنا أصدقاء. فقد كنا نعيش في أكواخ بشعة ولا نعرف أبسط مبادئ اللغة الإنكليزية. وكلّ تفكيرنا محصور في المال. لم تكن تقنياتنا الزراعية فعّالة. وكنا نفرط في استهلاك الماء. وأحيانا لا نحرث في العمق، لذلك كان أزواجنا يجبروننا على العمل كالإماء. هم يستوردون هؤلاء البنات من اليابان لتوفير أيد عاملة مجانية. كنا نعمل في الحقول من الصباح إلى المساء دون أن نتوقف حتى للأكل. نعمل في الحقول إلى وقت متأخر من الليل على ضوء مصابيح البترول، ولا نتمتع أبدا بيوم

Twitter: @ketab_n

راحة. ساعة وسرير: شيئان لن يستعملهما الياباني في حياته أبدا. صرنا على رأس فرعهم للكرنب. وضعنا اليد على السبانخ. صرنا نستأثر بالفراولة ونحتكر سوق الفاصوليا. كنا نشكّل آلة اقتصادية لا تغلب، لا تقهر، وإن لم يكبح أحد جموحنا فسوف يصبح الغرب الأمريكي كله عما قريب مَبسَط سلع، مستعمرة آسيوية.

طوال ليال كاملة، كنا ننتظرهم. أحيانا يمرون أمام أكواخنا ويثقبون شبابيكنا برصاص الصيد، أو يضرمون النار في قنّ الدجاج. وأحيانا يفجرون مخازننا. يحرقون زرعنا وقد بدأ ينضج، ما يجعنا نخسر حصيلة عام كامل. ومهما عثرنا على آثار أقدام على الأرض حين يطلع النهار، وعلى أعواد كبريت مبعثرة، فقد كان «الشريف»[1] إذا دعوناه لمعاينة الأضرار بنفسه، يجيبنا بأن الأدلة غير كافية. بعدها لم يعد أزواجنا كما كانوا. ما الفائدة؟ عند هبوط الليل، كنا ننام بأحذيتنا وفأس صغيرة حذو السرير، فيما يبيت أزواجنا جالسين قرب النافذة حتى مطلع الفجر. أحيانا نستيقظ فزعات على صوت ما، ولكن لا شيء يحدث، -لعلّها خوخة في مكان ما من العالم، وقعت من أعلى شجرة-، وفي أحيان أخرى ننام كامل الليل، فنجد أزواجنا في الصباح منكفئين على كراسيّهم يشخرون، عندئذ نحاول إيقاظهم بلطف لأن بندقيتهم لا تزال موضوعة على ركبهم. أحيانا يشتري أزواجنا كلب حراسة، يطلقون عليه اسم ديك أو هاري أو سبوت، وينتهي بهم الأمر إلى التعلق بالكلب أكثر من تعلقهم بنا، فنتساءل عمّا إذا كنا قد ارتكبنا حماقة حين قدمنا للاستقرار بأرض كثيرة العنف شديدة العداء. هل توجد قبيلة أشد همجية من الأمريكان؟

إحدانا كانت تحمّلهم مسؤولية كل شيء وتتمنى لهم الموت. إحدانا

(1) Shérif : عمدة البلدة، الساهر على أمنها. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

كانت تحمّلهم مسؤولية كل شيء وتتمنى لنفسها الموت. وأخريات تعلّمن العيش دون التفكير فيهم. كنّا نضع كلّ قوانا في الشغل، يسكننا هوس قلع عشبة طفيلية أخرى. أخفينا مرايانا. أقلعنا عن تسريح شعرنا. نسينا التجمّل. **عندما أعفّر أنفي أكون كمَلاح[1] على جبل.** نسينا بوذا. نسينا الإله. تجمّدنا من الداخل، ولم تتخلص قلوبنا بعد من جليدها. **أظنّ أن روحي ماتت.** لم نعد نكاتب أمّنا. فقدنا وزننا وصرنا نحيلات. لم نعد نحيض كل شهر. لم نعد نحلم. لم تعد لنا رغبة في أيّ شيء. كنا نعمل، فقط. نزدرد وجبات اليوم الثلاث دون أن نقول لأزواجنا كلمة حتى نعود بأسرع وقت ممكن إلى الحقول. **«دقيقة مكتسبة هي عشبة طفيلية مقتلعة»، لم تعد هذه الفكرة تفارق ذهني أبدا.** كنا نفرج لهم أفخاذنا كل ليلة حتى وإن غلبنا النوم من شدة التعب قبل أن ينتهوا. نغسل ثيابهم مرة في الأسبوع في قصاع ماء حامية. نعدّ لهم الأكل. ننظّف كلّ شيء من أجلهم. نساعدهم على قطع الخشب. ولكن لم نكن نحن اللاتي يطبخن ويغسلن ويستعملن الفأس، كانت واحدة أخرى. وفي أغلب الأوقات، لا ينتبه أزواجنا لاختفائنا.

بعضنا هجرن الريف ليمكثن في الضواحي وصرن يعرفنها. كنا نعيش في الأحياء المخصّصة لخدم البيوت الفاخرة في أثيرتون وبيركلي، فوق تلغراف، هناك في أعلى الهضاب. أو نعمل لدى رجل مثل الدكتور جوردانو، وهو جرّاح مشهور على الساحل الذهبي لألَميدا، أخصائي في أمراض الصدر. وفيما كان أزواجنا يجتزّون مَرجة الدكتور جوردانو، يجمعون الأوراق الميتة للدكتور جوردانو، يقلّمون شجيرات الدكتور جوردانو، كنا نبقى في الداخل مع المسّز جوردانو، وهي امرأة ذات شعر داكن جَعْد وأسلوب لطيف، كانت تريدنا أن نناديها روز، فكنا

(1) ملاح givre: طبقة خفيفة من الجليد تتكون بتجمد نقط ماء الضباب. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

ننظف طاقم فضّيات روز، نكنس الأرضيات الخشبية لروز، نعتني بالأطفال الثلاثة لروز، ريشارد وجيم وتيو، الذين كنا نهدهدهم كل مساء بأغنيات في لغة غير لغتهم. نيموري، نيموري[1]. وهو ما لم نكن نتوقعه بالمرة. **جئت أعتني بهؤلاء الصبية وكأنهم أبنائي.** ولكنّ أحبَّهم إلينا جدّتهم العجوز لوسيا والدة الدكتور جوردانو. كانت أكثر وحدة منا، ولها قامة في طول قامتنا تقريبا، وبعد أن تجاوزت الخوف الذي كان يعتريها من وجودنا، لم تعد تفارقنا. كانت تتبعنا من غرفة إلى أخرى ونحن ننفض الغبار أو نمرر المسحة دون أن تتوقف عن الكلام. مولتو بيني. بيرفيتّو! باسطا كوزي[2]. وقد ظلت ذكريات بلدها حاضرة فينا لمدة طويلة بعد موتها وكأنها ذكرياتنا: الموتساريلاّ، الـ **بومو دوري**، الـ **لاغو دي كومو**، الـ **بياتسا**[3] وسط المدينة حيث كانت تذهب كل يوم لاقتناء ما يلزم صحبة أخواتها. **إيطاليا، إيطاليا، كم أحب أن أرى بلادي للمرة الأخيرة.**

نساؤهم هن اللاتي علّمننا الأشياء التي نحتاج إليها. كيف نوقد موقد الطبخ. كيف نرتب السرير. نجيب عند عتبة الباب. نصافح. نفتح صنبور الماء، لأن كثيرا منا لم يرينه في حياتهن قطّ. كيف نردّ على الهاتف بلهجة توحي بأننا فرحات والحال أننا حزينات أو غاضبات. كيف نسلق بيضة. كيف نقشر حبة بطاطا. كيف نعدّ المائدة. كيف نحضّر في ست ساعات عشاء من خمس أكلات مختلفة لدزينة من الأشخاص. كيف نشعل سيجارة. نحدث دوائر بسحابات

(1) باليابانية في النص nemure, nemure : ومعناها ناموا، ناموا. (المترجم).

(2) بالإيطالية في النص: Molto bene. Perfetto ! Basta cosi. ومعناها: حسن جدا. ممتاز! هكذا يكفي. (المترجم).

(3) بالإيطالية في النص: Pomo dori, Lago di Como, Piazza ومعناها على التوالي: الطماطم، بحيرة كومو والميدان. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

الدخان. نجعّد الشعر تشبّها بماري بيكفورد. كيف ننظّف أثر أحمر الشفاه على ياقة القميص الأبيض المفضّل لدى زوجك والحال أنه ليس من قلم شفاهك. كيف نرفع فستاننا في الطريق لنكشف فقط عمّا يليق إظهاره من العرقوب. **ينبغي جذب النظر، وليس الإثارة.** كيف نخاطب زوجنا. نخاصم زوجنا. نخون زوجنا. كيف نمنعه من الابتعاد كثيرا عنا. **لا تسأليه أين ذهب ولا في أي ساعة رجع إلى البيت، واحرصي على أن يكون سعيدا في الفراش.**

كنا نحبهنّ. نكرههنّ. كنا نريد أن **نكونهنّ**. بطولهنّ الفارع وجمالهنّ وبياضهنّ، بأطرافهنّ الطويلة المشيقة، بأسنانهن البيضاء الناصعة، بسحنتهنّ المصفرّة المضيئة التي تخفي عيوب الوجه السبعة، بطبائعهنّ الغريبة والمحببة في آن واحد، طبائعهنّ التي لا تني تسلّينا -ميلهنّ إلى الصلصة A1، الأحذية المدببة ذات الكعاب، طريقتهن المضحكة في المشي بجعل أصابع الرجلين بارزة للعيان، عادة اجتماعهن في صالون هذه أو تلك وبقائهن واقفات يتحدثن جميعا في الوقت نفسه طوال ساعات في مجموعات كثيرة العدد صاخبة النبرة. ولكن لماذا لا يجلسن أبدا؟ نتساءل. كن سعيدات داخل عالمهنّ. مرتاحات جدا. كن يملكن ثقة في النفس تعوزنا. وشعرا أجمل. **بألوان كثيرة**. فكنا نأسى لكوننا لا نقدر أن نشبههن أكثر مما نفعل.

وفي آخر المساء، في غرفتنا الضيقة الخالية من النوافذ، في الفناء الخلفي لبيوتهن الفسيحة الفاخرة، نقلدهنّ. «والآن، أنت المعلّم وأنا المعلّمة» كنا نقول لأزواجنا. فيجيبون «كلا، أنت المعلم وأنا المعلّمة». نحاول أن نتخيل كيف يتصرفون. ماذا يقول بعضُهم لبعض. من الذي يكون فوق ومن الذي يكون تحت. هل يصرخ؟ وهي؟ هل يستيقظان من النوم وهما متعانقان؟ وفي ليال أخرى، نظل ممددين في هدوء

Twitter: @ketab_n

تحت جنح الظلام ونحن نسترجع أحداث يومنا. **نفضت الزربية. غَلّيتُ الملاحف. قلّعت نبات النّجيل جنوبي المرجة بسكّيني.** وحينما ننتهي، نتغطى ونغمض عيوننا ونحلم بالأوقات الجميلة القادمة. نحلم ببيت جميل أبيض يكون لنا، في شارع طويل مظلل، به حديقة مزهرة على الدوام. بحوض مغطس يمتلئ ماءً ساخنا في بضع دقائق. بخادمة تجيئنا كل صباح بالفطور على طبق من الفضة وتكنس كل الغرف. بعاملة غرفة. بفضاء لغسل الثياب ونشرها. بقهرمان صيني في رَدنْغوت يهبّ حالما ندندن الناقوس لنقول له: «شارلي، من فضلك، جئني بشايي!»

كن يطلقن علينا أسماء جديدة. ينادينا هيلن أو ليلي. وحتى مارغريت أو بيرل. كن منبهرات بقامتنا القصيرة وبشعرنا الطويل الأسود اللامع. يشكرننا على طاقتنا الكبرى في العمل. **هذه البنت لا تتوقف بتاتا قبل أن تنهي مهمّتها.** يفاخرن بخصالنا أمام جاراتهن. يفاخرن بخصالنا أمام صديقاتهن. يزعمن أنهن يفضّلننا على كافة خدم البيت. **لا يمكن أن نجد أفضل.** عندما يشعرن بالضيق ولا يجدن من يكلّمن، يفشين لنا أكثر أسرارهن خطورة. **كل ما قلته له كان كذبا.** عندما يغيب أزواجهن لأسباب مهنية، كن يطلبن منا أن نشاطرهن غرفتهن حتى لا يشعرن بالوحدة. عندما ينادينا في جوف الليل، نسرع إليهن ونبقى بجانبهن إلى الصباح. «اهدئي، اهدئي»، كنا نقول لهن، و: «لا تبكي، أرجوكِ.» وعندما يقعن في هوى رجل غير زوجهن، كنا نرعى أطفالهم كامل النهار فيما يذهبن للقاء ذلك الرجل. « هل أبدو جميلة هكذا؟» كن يسألننا. و: «تنورتي ليست ضيقة أكثر من اللازم؟» كنا نلقط من قميصهن نتف نسيج لا تُرى، نعيد ربط وشاحهن، نقوّم خصلة نافرة كي تتدلى كما ينبغي. نقلّع شعراتهن البيضاء دون تعليق. «أنتِ جميلة»، نقول لهن، ثم نتركهن ينصرفن. وعندما يعود أزواجهن

Twitter: @ketab_n

في المساء نتظاهر بأننا نجهل كل شيء.

إحداهنّ كانت تعيش وحيدة في قصر ريفي صغير على هضبة نوب هيل بسان فرانسيسكو، ولم تغادره منذ اثنتي عشرة سنة. وأخرى كونتيسة قادمة من دريسدن لم تمسك في حياتها شيئا أشد وزنا من شوكة. وفرّت امرأة أخرى من البلشفيين في روسيا وهي تحلم كل ليلة بأنها عادت إلى بيت أبيها في أوديسا، بعد أن خسرت كل شيء. وأخرى كانت ترغمنا على السجود على أربع لجَلْي البلاط بدل أن يتركننا نستعمل المكنسة والممسحة، في حين كانت امرأة غيرها تمسك بخرقة وتحاول مساعدتنا ولكنها كانت تعطّلنا. وأخرى كانت تعدّ لنا أطعمة جيدة وتقدمها لنا في أوانٍ من الفخار وتلحّ علينا بأن نجلس معها إلى المائدة، والحال أننا لا نفكر إلا في استئناف العمل. وأخرى كانت لا ترتدي ثيابها أبدا قبل منتصف النهار. كثيرات كن يشتكين من أوجاع الرأس. كثيرات كن حزينات. معظمهن يشربن الخمر. إحداهن كانت تأخذنا في ظهيرة كل جمعة إلى مغازة **سيتي أوف باريس بالمدينة**، وتطلب منا أن نختار لباسا. **خذي ما تشائين**. وأخرى أهدتنا معجما، وقفازا من الحرير الأبيض ورسّمتنا في درسنا الأول بالإنكليزية. **سائقي الخاص سوف ينتظرك في الأسفل**. أخريات حاولن تعليمنا اللغة بأنفسهن. **هذا سطل. هذه ممسحة. هذه مكنسة**. إحداهن لم تكن تستطيع أن تتذكر أسماءنا، فيما كانت امرأة أخرى تستقبلنا بحفاوة كل صباح، ولكنها تتجاهلنا حين نصادفها في الطريق العام. وأخرى لم تبادلنا الكلام إلا لماما طوال ثلاث عشرة سنة قضيناها في خدمتها، ولكنها حين ماتت تركت لنا ثروة.

ما كنا نفضّله هو خروجهنّ للذهاب إلى صالون الحلاقة، أو لتناول الغداء في النادي، حينما يكون أزواجهن في العمل، وأطفالهن لم يعودوا

Twitter: @ketab_n

بعد من المدرسة. عندها لا ينظر إلينا أحد. ولا يكلمنا أحد. ولا يأتينا أحد خلسة من الخلف، ونحن ننظف دورة المياه لينظر إن كنا لم نترك بقعا. البيت خال تماما. هادئ. كل ما فيه لنا. كنا نسحب الستائر. نفتح النوافذ. نتنفس الهواء النقي ونحن نمر من غرفة إلى أخرى ننفض الغبار ونلمّع التحف. **كلّ ما يلاحظنه، هو إن كان كل شيء يلمع.** عندئذ نحس بالراحة. وتخفت حدّة الخوف. فنكون، ولو لمرة وحيدة، كمهدِنا بأنفسنا.

بعضنا كن يسرقن. أشياء صغيرة في البداية، ظنا منهنّ ألاّ أحد سيلاحظ ذلك. شوكة من الفضة من هنا، مِملحة من هناك. جرعة كونياك من حين إلى آخر. طاس رائع مزدان بالزهور كنا نرغب فيه بأي ثمن. صُحَيفة فاخرة. مزهرية من الخزف في خضرة بوذا من اليشم لدى أمنا. **أحب الأشياء الجميلة.** حفنة نقود مبعثرة على مبسط السلع منذ أيام. وبعضنا الآخر كن يقاومن الإغراء، فتقابل أمانتهن بمكافأة مجزية. **أنا الخادمة الوحيدة التي تَسمَح لها بدخول غرفتها. كل السود مضطرون إلى البقاء في الدور الأرضي، في المطابخ.**

بعض منهنّ يطردننا دون سابق إنذار ولا ندري أبدا ماذا جنينا كي نستحق ذلك. «أنت فائقة الجمال»، يقول أزواجنا، رغم أننا نجد صعوبة في تصور ذلك. بعض منا كنّ حاملات خمولا يجعلهنّ عاجزات عن تحمّل أكثر من أسبوع. كنا ننسى طهي اللحم قبل تقديمه للعشاء. نحرق كل مرة جريش شوفانهن. نوقِع أجمل أكوابهن الكريستال. نرمي أجبانهن خطأ. «ظننت أنه فاسد» نحاول أن نشرح. فيُجبن: «ولكنها رائحته الطبيعية». بعضنا يجدن صعوبة في فهمهنّ لأن إنكليزيتهن لا تشبه في شيء إنكليزية كتبنا. كنا نجيب بـ «نعم» إن كان يزعجنا طي غسيلهن، وبـ«لا» حين يطلبن منا تمرير المسحة، وعندما يرغبن في

Twitter: @ketab_n

معرفة ما إذا كنا رأينا أقراطهن الذهبية التي ضاعت منهن، نقول: «صحيح؟»، فيما تُجيب أخريات دوما بـ«مممه». بعض أزواجنا كذبوا حول قدراتنا في الطبخ -**زوجتي متخصصة في الدجاج على الطريقة الكييفية[1] والفيشية[2]**-، ولكن سرعان ما اتضح جليا أننا لا نحسن سوى طبخ الأرز. بعضنا كبرن في مساكن فاخرة، لها خدم خاصون لا يقبلون أن توجَّه لهم الأوامر. بعضنا لا يحتملن الأطفال الأمريكان ويعتبرنهم كثيري الضجيج والعدوانية. وأخريات لا يَرضَين بأن ينتقدهنّ أرباب البيوت أمام أطفالهم دون أن يتفطنوا حتى لوجودهن في المكان نفسه. **إذا لم تجتهد في المدرسة، ستجد نفسك في آخر المطاف تنظّف البلاط مثل ليلي.**

أغلبهن كن لا يعرننا اهتماما إلا لماما. نحن موجودات حينما يحتجن إلينا، وعندما تزول الحاجة، بوف، نختفي. ننسحب في مكان ما حيث ننظف بلاطهن بغير ضجيج، نلمّع أثاثهن، نرافق نسلهن في الاستحمام، نجلي نواحي من البيت لا يراها سوانا. لا نتكلم. نأكل بمقدار زهيد. كنا لطيفات. كنا طيبات. لا نتسبب في أي مشكل، ونتركهن يفعلن بنا ما يشأن. كنا نستمع لإطرائهن حينما يكنّ راضيات عنا. وندعهن ينفجرن في وجوهنا حينما يكن غاضبات. كنا نقبل منهنّ أشياء لا نحتاج إليها ولا نرغب فيها. **إذا لم أقبل هذا الصدار القديم، فسوف تتهمني بالأنفة. لم نكن نضايقهن بأسئلتنا.** لم نكن نجيب أو نشتكي بالمرة. أو نطلب أي زيادة في الأجر. معظمنا بنات بسيطات من الريف، لا نتكلم الإنكليزية، وبالتالي، لم يكن لنا خيار في أمريكا إلا في جلي حوض المطبخ، وتلميع البلاطات الخشبية،

(1) الكييفية: نسبة إلى مدينة كييف عاصمة أوكرانيا.

(2) الفيشية: نسبة إلى مدينة فيشي الفرنسية.

Twitter: @ketab_n

وذلك ما ندركه جيّدا، لا خيار.

لم نكن نذكرهن في رسائلنا إلى أمّنا. لا نذكرهن في رسائلنا إلى أخواتنا وصديقاتنا. لأن أحقر حرفة يمكن أن تمارسها امرأة في اليابان هي حرفة خادمة. هجرنا الحقول لنقيم في بيت فاخر بالمدينة، حيث وجد زوجي عملا قرب أسرة من الدرجة الأولى. بدأت أسمن. أنشرح. ازدادت قامتي سنتمترا. صرت ألبس الآن ملابس داخلية، مشدّا للخصر والردفين، رافعة نهدين من القطن الأبيض. أنام حتى التاسعة كل صباح وأقضي ما بعد الظهيرة في الحديقة صحبة قط. وجهي أكثر اكتمالا. ردفاي أعرض. خطوي ازداد اتساعا. أتعلّم القراءة. أتلقّى دروسا في العزف على البيانو. أحذق فنّ إعداد المرطبات الأمريكية، بل إن تورتة الليمون المكسوة بمزيج السكر والآح التي أعدها فازت في مسابقة منذ مدة قصيرة. أعرف أنك ستكونين في هناء هنا. الشوارع أكثر عرضا ونظافة، ولا نحتاج إلى خلع أحذيتنا للمشي على العشب. غالبا ما أفكر فيك وسأرسل إليك بعض المال في أول فرصة.

من حين إلى آخر، يُعلمنا أحد رجالهم أنّه يريد التحادث معنا في مكتبه، في غياب زوجته التي ذهبت لقضاء شؤونها، ولم نكن نعرف كيف نقول لا. «كل شيء على ما يرام ؟» كان يسألنا. في العادة نغضي طرفنا ونجيب بـ «نعم»، بالتأكيد، كل شيء على ما يرام، حتى ولو كان ذلك غير صحيح، ولكن عندما يضع يده بلطف على كتفنا وهو يلحّ كي يتأكد، لا ندير له الظهر. «لن يعلم بهذا أحد» يقول لنا. أو: «ستعود في وقت متأخر.» وعندما يقودنا إلى غرفته، في الطابق العلوي، ويطرحنا على السرير – ذلك السرير الذي فرشناه في الصباح نفسه –، نجهش بالبكاء لأنّنا لم يحضنّا أحد من زمن بعيد.

Twitter: @ketab_n

بعضهم يطلبون منا أن نقول لهم كلمات باليابانية، فقط كي يستمعوا إلى نبرة أصواتنا. **لا يهمّ ما تقولين.** بعضهم يطلبون منا أن نلبس أجمل كيمونو حرير لدينا وأن ندوس ببطء على ظهورهم. بعضهم يطلبون منا أن نوثقهم بحزام من الحرير الزهري ثم نقذفهم بشتى النعوت التي تجول ببالنا، وكنا نفاجأ بالعبارات التي تخطر بأذهاننا، بتلك السهولة، لأننا لم نجهر بها قط بصوت عال. بعضهم يطلبون منا أن نقول لهم اسمنا الحقيقي، فيتمتمونه بعد ذلك أكثر من مرة، إلى أن نصبح غير قادرات على معرفة من نكون: **ميدوري. ميدوري. ميدوري.** بعضهم يقولون لنا إننا جميلات، ونحن نعلم أننا دميمات قبيحات. **في اليابان لا ينظر إلينا أيّ رجل.** بعضهم كانوا يريدون معرفة ما إذا كنا نحبّ ذلك لأنهم يؤلموننا، بل معرفة ما إذا كنا نحبه رغم ذلك، وكنا نجيب بـ «نعم»، وتلك هي الحقيقة. **على الأقل، حينما أكون معك، أحس أنني حيّة أرزق.** بعضهم يكذبون علينا. **لم أفعل هذا من قبل، إطلاقا.** وكنا نقابل كذبهم بكذب. **أنا أيضا.** بعضهم كانوا يدفعون لنا نقودا كنا ندسّها في جواربنا، ثم نسلمها لأزواجنا في الليل دون أن ننطق بكلمة. بعضهم يعدوننا بأنهم سوف يهجرون زوجاتهم من أجلنا، ونحن نعلم أنهم لن يفعلوا ذلك أبدا. بعضهم كانوا حين يكتشفون أننا حملنا منهم -**زوجي لم يلمسني منذ أكثر من ستة أشهر**- يطردوننا. «يجب أن تتخلّصي منه»، كانوا يقولون لنا. ثم: «سأدفع كل ما يلزم.» ثمّ: «سأجد لك في الحال عملا في مكان آخر.»

إحدانا ارتكبت خطأ الوقوع في غرام رجل ولا تزال تذكره ليل نهار. وأخرى حكت كل شيء لزوجها، فعنّفها بمكنسة قبل أن ينهار دامع العينين. وأخرى حكت كل شيء لزوجها، فطلّقها وأعادها إلى أهلها في اليابان، وهي الآنَ تشتغل في معمل بناغانو حيث تنسج الحرير عشر

Twitter: @ketab_n

ساعات في اليوم. وأخرى حكت كل شيء لزوجها، ففغر لها، ثم اعترف لها بخياناته. **لي أسرة ثانية بكولوزا**. امرأة أخرى لم ترو شيئا لأحد، وشيئا فشيئا اختلت مداركها. وأخرى كتبت لأمها ترجو النصيحة، وكانت أمها تعرف دائما ماذا ينبغي أن تفعل، ولكنها لم تتلقّ ردّا. **عليّ أن أعبر هذا الجسر وحدي**. وأخرى عبّأت كُمّي كيمونو زواجها الحريريّ الأبيض بالحجر ودخلت البحر، ونحن ندعو لها كل يوم.

بعض منا وجدن أنفسهن في خدمتهم بصورة حصرية في فنادق المتعة الرخيصة المطلة على مسابح بيع الخمور ومحلاتها في الأحياء الساخنة لمدنهم. كنا نراودهم من نوافذ الدور الأول **لطوكيو هاوس**، حيث لا يتجاوز عمر أصغرنا العشرة أعوام. كنا نرقبهم من خلف ستائر الورق المزخرف **ليوكوهاما هاوس**، وإن يدفعوا نفعل معهم ما ترفض أن تفعله زوجاتهم في البيوت. كنا نأتي إلى ألوها هاوس تحت أسماء السيدة ساكي أو الآنسة المحترمة زهرة الكرز، ونتحدث بنبرة فتاة من الطبقة العليا، وعندما يسألوننا عن مسقط رأسنا نجيب في ابتسام: «أوه، من جهة كيوطو.» كنا نراقصهم في **نيو إدين نايت كلاب** ونحملهم على دفع خمسين سنتا عن كل ربع ساعة نقضيها في رفقتهم. وإن شاؤوا الصعود معنا، نعلمهم بأن المضاجعة بخمسة دولارات والبقاء بالغرفة حتى الصباح بعشرين دولارا. عندما ينتهون، نسلم تلك النقود إلى العَرف، الذي كان يقامر طول الليل، ويدفع رشاوى بانتظام للشرطة، ويرفض أن نضاجع رجلا من جنسنا. **فتاة في مثل جمالك تساوي ألف قطعة ذهبية**.

عندما نكون معهم في الفراش، نكتشف أننا نتشوق لزوجنا، الذي هربنا منه. **هل كان فظا، عنيفا، مقلقا إلى هذا الحد؟** يصادف أن نقع في هوى عَرفِنا الذي اختطفنا تحت تهديد سكّين ونحن عائدات

Twitter: @ketab_n

من الحقول. هو يمنحني بعض الأشياء. يحدثني. يسمح لي بالخروج للنزهة. أحيانا ننتهي إلى الاقتناع بأننا، بعد سنة في أوريكا هاوس، سيكون لنا من المال ما يكفي لشراء تذكرة العودة، ولكن لا يبقى في نهاية العام سوى خمسين سنتا ومرض سيلان لئيم. في السنة القادمة، نقول لأنفسنا. أو التي تليها. ولكن، حتى أكثرنا حسنا كانت تعلم أن أيامنا معدودة، لأننا، في مهنتنا، إذا بلغنا العشرين، نكون إمّا انتهينا أو متنا.

أحدهم اشترانا من الماخور الذي كنا نعمل فيه، وأنزلنا بمونتيسيتو في بيت كبير لن نذكر اسمه، بيت يفتح على شارع تحف به الأشجار. وعلى نافذته أصص من نبات الجلجل، وبداخله أطباق طاولة من المرمر، وكنبات من الجلد، وأوان بلورية تمتلئ بشتى أنواع الجوز حين يجيء الزوار. ثمة كلبة صغيرة بيضاء محبوبة سميناها شيرو، على اسم تلك التي تركناها في اليابان، كنا نجد متعة في أخذها للفسحة ثلاث مرات في اليوم. ثلاجة كهربائية. غراموفون. مذياع من نوع ماجستيك. سيارة فورد تي في الممشى كنا نشغّلها بالمدوّرة كل يوم أحد للخروج للنزهة. ثمة خادمة فيليبينية قصيرة جدا تدعى كونسويلو كانت تعدّ أصنافا لذيذة من الصحلب والفطائر وتستبق أدنى رغباتنا. كانت تعلم حين نكون سعيدات. وتعلم حين نكون حزينات. تعلم إذا تخاصمنا بالأمس وإذا قضينا وقتا ممتعا. من أجل ذلك كله، كنا نحس بالامتنان تجاه زوجنا الجديد، فلولاه لكنا لا نزال نمارس المراودة في الطريق العام. حالما رأيته، أدركت أنني نجوت. ورغم ذلك، كنا من حين إلى آخر نفاجأ بالتفكير في الرجل الذي تركناه خلفنا. هل أحرق كل أشيائنا بعد رحيلنا؟ هل مزّق رسائلنا؟ هل يكرهنا؟ هل يشتاق إلينا؟ هل يتساءل في سرّه ما إذا كنا في عداد الموتى أو الأحياء؟

Twitter: @ketab_n

ألا يزال يعمل بستانيًا لدى آل بورنام في ساتر ستريت؟ هل غرس لهم أشجار النرجس الأسلي؟ هل أنهى إعادة زرع مرجتهم؟ ألا يزال يتناول العشاء وحيدا في مطعم مسز بورنام الجميل الكبير، أم أنه استطاع أن يقيم علاقة مع الخادمة السوداء المفضلة لدى مسز بورنام؟ ألا يزال يقرأ ثلاث صفحات من **دليل البستاني** قبل النوم؟ ألا يزال يحلم بأن يصبح ذات يوم كبير الخدم؟ بين الفينة والأخرى، حين تميل الشمس إلى المغيب، كنّا نُخرج من حقيبتنا صورته المصفرّة لنتطلّع إليها للمرّة الأخيرة قبل رميها. ولكنّنا سرعان ما نتراجع بعدها عن ذلك القرار.

عدد منّا وجدن أنفسهن منحنيات فوق دست من الصفيح منذ يومهم الثالث بأمريكا، يفركن الثياب بهدوء: ملاحف، أغطية، وسائد مبقعة، مناديل جيب متسخة، ياقات قذرة، قمصان دانتيل بيضاء كانت على قدر من الجمال جعلنا نعتقد أنها تُلبس فوق الثياب لا تحتها. كنا نعمل في مغاسل تحت الأرض بحيّ ياباني يقع في المواقع الأكثر خرابا في مدنهم -سان فرانسيسكو، ساكرمنتو، سانتا بربرا، لوس أنجلس- كل صباح، كنا ننهض قبل الفجر مع أزواجنا لنغسل ونفرك ونغلّي. وفي المساء، عندما نضع فُرَشنا جانبا لنستلقي على السرير، نحلم بأننا نواصل التنظيف، بقينا على تلك الحال أعواما طويلة. ولكن حتى لو لم نأت إلى أمريكا لنعيش في غرفة ضيقة مغلقة بستارة في عمق **روايال هاند لوندري**، فقد كنا نعلم أننا لا نستطيع العودة إلى ديارنا. إن عدتِ، كتب أبونا يقول، **فستجلبين العار للعائلة كلها. إن عدتِ فإن أخواتك الصغريات لن يتزوجن أبدا. لو عدتِ فلن يرضى بكِ أيّ رجل آخر.** فبقينا في الحي الياباني مع أزواجنا الجدد، حيث هرمنا قبل الأوان.

في الحي الياباني، لم نكن نصادفهم قطّ. كنا نقدّم الأكل للزبائن

Twitter: @ketab_n

سبعة أيام في الأسبوع في مطاعم أزواجنا البائسة وخمّاراتهم الحقيرة، ونعرف المنتظمين منهم عن ظهر قلب. يَماموطو - صَنْ. ناتسوهارا - صَنْ. إيتو -صَنْ. كودامي - صَنْ[1]. كنا ننظف الغرف في بنسيونات أزواجنا المتواضعة، ونعدّ الطعام مرتين في الأسبوع لسكانها الذين يشبهوننا شبَهَ الماء بالماء. نقضي ما نحتاج إليه من دكان **فوجيوكا** التي تبيع كل ما اعتدنا أن نجده من قبلُ في بلادنا: شاي أخضر، فطائر سمك، بخور، برقوق مخلل، توفو[2] طازج، طحالب مجففة لمقاومة السّلَعَة[3] والزكام. نذهب بحثا عن الساكي المهرَّب لأزواجنا، في المسبح الذي يوجد تحت الماخور الواقع في زاوية التقاء ثيرد ستريت ومين ستريت، مع الحرص على ارتداء مئزر أبيض حتى لا يقع الخلط بيننا وبين المومسات. كنا نشتري فساتيننا من **يادا لاديز شوب** وأحذيتنا من أساهي شو، حيث نجد مقاساتنا. ونقتني مرهما لوجوهنا من **تينشودو دراغ**. نقصد الحمام العمومي كل سبت، حيث نتبادل الثرثرة والنمائم مع صديقاتنا وجاراتنا. هل صحيح أن كيسايو كانت ترفض أن يدخل زوجها من الباب الأمامي؟ وأن ميكيكو هربت مع لاعب ورق بـ **طويو كلاب**؟ وأن **هاجينو** فعلت ما فعلت بشعرها؟ **كأنه عش فئران**. كنا نذهب إلى مصحة الأسنان يوشيناغا حينما توجعنا أسناننا، وعندما تؤلمنا ركبنا أو ظهورنا نذهب إلى عيادة الدكتور هايانو الذي يُعالج بوخز الإبر، ويمارس أيضا فن الشياتسو[4]. وحين نكون في حاجة إلى نصائح حول مسائلنا العاطفية

---

(1) صَنْ: تقال للذكر والأنثى على حد سواء بعد ذكر الاسم، وتقوم مقام سيد، سيدة، آنسة عند المناداة من باب الاحترام.

(2) Tofu: جبن سوجا، طعام أساس في نظام الأغذية الآسيوية.

(3) السلعة: تضخم الغدة الدرقية.

(4) الشياتسو: تدليك باستعمال الإبهامين.

Twitter: @ketab_n

نتوجه إلى مسز موراتا العرّافة التي تقيم في البيت الأزرق بالشارع الثاني، فوق المرابي أساكاوا، فنجلس في مطبخها ورؤوسنا منكّسة، وأيدينا على ركبنا، ننتظر تلقيها رسالة من الآلهة. **لو تفارقينه الآن فلن تحصلي على رجل آخر.** كل ذلك يجري في مجال لا يتجاوز أربعة تجمّعات سكنية، وهو حي أكثر يابانية من القرية التي قدمنا منها. **عندما أغمض عينيّ أنسى أنني أعيش في الخارج.**

عندما نغادر الحي الياباني لنتسكع في الشوارع الكبيرة النظيفة لمدينتهم، نحاول ألا نلفت الانتباه حولنا. كنا نرتدي مثلهم. نمشي مثلهم. نحرص على التنقل في مجموعات. نتضاءل -ابقي في **مكانك يتركوك وشأنك**- ونسعى جهدنا كي لا نأثم في حقهم. ومع ذلك كانوا يوقعوننا في حيرة. رجالهم يلقون أزواجنا بدَفعة مُفاجئة بالكتف يشفعونها بـ «آسف، أنا!» وهم ينزلون قبعاتهم. أطفالهم يقذفوننا بالحجارة. والنادلون يضعوننا دائما في آخر اهتماماتهم. مضيفات السينما يقدننا إلى الأعلى، في الشرفة الثانية، حيث يُجلسننا في أسوأ مقاعد القاعة. **فردوس الزنوج**، كما كنّ يسمينها. حلاقوهم يرفضون تصفيف شعورنا. **متينة جدا بالنسبة إلى مقصاتنا.** نساؤهم يأمرننا بالابتعاد عنهن في الباص كلما دنونا منهن أكثر مما ينبغي. «أرجو المعذرة» كنا نجيب، ثم نبتسم ونبتعد. ذلك أنّ خير طريقة للصمود أمامهن، كما نصحنا أزواجنا، هي ألا نصمد. بيد أننا كنا في أغلب الأوقات نبقى في بيوتنا، في الحي الياباني، حيث نشعر بالأمان وسط بني قومنا. لقد تعلّمنا أن نعيش في عزلة، بتجنبهم قدر الإمكان.

كنا نَعِدُ أنفسنا بالرحيل. في يوم من الأيّام سوف نعمل بجهد جهيد لندّخر ما يكفي من المال ونرحل إلى مكان آخر. إلى الأرجنتين مثلا. أو المكسيك. أو إلى ساو باولو بالبرازيل. أو هارْبِنْ بمنشوريا حيث يمكن

Twitter: @ketab_n

للياباني أن يعيش مثل أمير حسب قول أزواجنا. أخي استقر هناك العام الماضي وحقق نجاحا كبيرا. نستطيع أن نبدأ من جديد. نفتح بَسطة فواكه خاصة بنا. شركتنا التجارية. فندقنا من الدرجة الأولى. سوف نغرس بستان كرز. غيضة كاكي[1]. سوف نشتري مئات الهكتارات من الحقول الصهباء الخصبة. سوف نتعلم أشياء. ونفعل أشياء. سوف نبني ملجأ للأيتام. معبدا. سوف نركب القطار لأول مرة. ومرة في كل عام، يوم عيد زواجنا، سوف نتجمّل بأحمر الشفاه ونذهب إلى المطعم. مكان فاخر، سُمُط بيضاء وثُريّات. وعندما يصير بحوزتنا ما يكفي من المال لمساعدة أهلنا من أجل عيش أفضل، سوف نحزم حقائبنا ونعود إلى اليابان. سيكون ذلك في فصل الخريف، حين يكون آباؤنا في الحقول يدرسون القمح. سوف نخرج للتنزه وسط أشجار التوت، قرب شجرة الزعرور الياباني، على طول غدير النيلوفر القديم، حيث كنا نصطاد الشراغيف في الربيع. سوف تهبّ إلينا كلابنا. ويلوّح نحونا الجيران بأيديهم. سوف تكون أمهاتنا جالسات قرب البئر، وأكمامهن مربوطة، ينظفن أرز المساء. عندما يلمحننا سوف يكتفين بالنهوض والنظر إلينا. «يا صغيرتي، سوف يقلن لنا، أين كنتِ؟»

ولكن في انتظار ذلك، سنبقى في أمريكا وقتا أطول نعمل لفائدتهم، فما عساهم يفعلون من دوننا؟ من سيجمع الفراولة في حقولهم؟ من سيغسل جزرهم؟ من سينظف مراحيضهم؟ من سيرتق ثيابهم؟ من سيكوي قمصانهم؟ من سيطرّي وسائدهم؟ من سيغير ملاحفهم؟ من سيُحضر فطورهم؟ من سيجمع أطباقهم؟ من سيواسي أطفالهم؟ من سيحمّم عجائزهم؟ من سيحفظ أسرارهم؟ من سيغني لهم؟ من سيرقص لهم؟ من سيبكي لهم؟ من سيدير لهم الخدّ الآخر، وبما

(1) الكاكي: مشمش اليابان.

Twitter: @ketab_n

أنّ التعب سيدركنا في يوم من الأيّام ونهرم، ونصبح عاجزين، فمن سيغفر لهم؟ أيّ غباء هذا. عندئذ، نطوي ألبسة الكيمونو وندسها في حقائبنا، ولا نعود لإخراجها لسنوات طويلة.

Twitter: @ketab_n

ولادات

وضعنا عند جذع سنديانة، في الصيف، تحت خمس وأربعين درجة. وضعنا حذو تنّور حطب في الغرفة الوحيدة لتخشيبتنا في ليلة من أشد ليالي العام بردا. وضعنا في جزر الدلتا المعرّضة للرياح، بعد ستة أشهر من وصولنا، وقد كان أطفالنا من الصغر والرهافة ما جعلهم يموتون بعد ثلاثة أيام. وضعنا بعد تسعة أشهر من وصولنا أطفالا كاملي الخَلق، والشعر الأسود يكسو رؤوسهم. وضعنا في مخيمات متربة، وسط الكروم في إلك غراف وفلورين. وضعنا في مزارع نائية بإمبريال فالي، دون مساعدة عدا مساعدة أزواجنا الذين تعلموا كل شيء في دليل **رفيق مدبّرة البيت. ضع قِدرا من الماء للغلي...** وضعنا في ريالتو، على ضوء قنديل بترول، فوق غطاء قديم من الحرير كنا جلبناه في حقائبنا من اليابان، مايزال يحتفظ برائحة أمي إلى الآن. وضعَنا مثلما وضعت ماكيو في إسطبل على مشارف ماكسويل، وهي متمدّدة على مفرش من التبن. **كنت أريد أن أكون قريبة من الحيوانات.** وضعنا وحدنا، في بستان تفاح بسيباستوبول، بعد أن جئنا ببعض الحطب الخفيف من الهضاب العالية في يوم من أيّام الخريف كان رحيما على خلاف العادة. قطعت الحبل السّرّي بسكيني وحملت ابنتي على ذراعيّ. وضعنا تحت خيمة بلفينغستن بمساعدة قابلة قدمت من المدينة وقطعت أكثر من ثلاثين كيلومترا على ظهر حصان لتمريضنا. وضعنا في دساكر صغيرة حيث لا يرضى

Twitter: @ketab_n

بمساعدتنا أي طبيب، فاضطررنا إلى التصرف في المشيمة بأنفسنا. رأيت أمي تفعل ذلك. وضعنا في قرى لا يوجد فيها غير طبيب واحد، عيادته باهظة بالنسبة إلينا. وضعنا بمساعدة الدكتور رينغواط الذي رفض أن ندفع له أجره. «احتفظوا بنقودكم»، قال لنا. وضعنا في ما بيننا، في مصحة قابلات تاكاهاشي بكليمنت ستيرت بسان فرانسيسكو. في مستشفى كوابارا بنورث فايف ستريت، بسان خوسي. على طريق ريفية مليئة بالهزات في كاستروفيل، في مؤخرة شاحنة دودج يملكها زوجي. **الرضيع حضر بسرعة فائقة**. وضعنا على أرض متربة غطّيناها بجريدة، تابعة لمخيم عمال بفرانش كامب، طفلا لم تر القابلة في حياتها أكبر منه. ما يزيد عن خمسة كيلو وستّة غرامات. وضعنا بمساعدة زوجة السمّاك، مسز كوندو التي كانت تعرف أمّنا في اليابان. **كانت ثانية فتيات القرية جمالا**. وضعنا خلف ستار مخرّم في عمق أداشي باربرشوب بغاردينا، بينما كان زوجي منهمكا في الحلاقة الأسبوعية لذقن مستر أوتا. وضعنا بسرعة، خارج ساعات العمل، في شقة فوق دكان هيغو حيث كل شيء بعشرة سنتات. وضعنا ونحن متشبثات بقوائم السرير، نلعن زوجنا -أنت الذي فعل بي كلّ هذا !- ونقسم ألاّ يعيد الكرّة أبدا. وضعنا في الخامسة صباحا في قاعة كيّ الثياب **إيغل هاند لوندري**، ألَمْ نقُل له منذ الليلة الأولى عند تقبيلنا: «**ألا تستطيع الانتظار؟**». وضعنا في صمت، مثل أمهاتنا اللاتي لم يصدر عنهن صراخ أو أنين. **ظلّت تشتغل في مزارع الأرز إلى أن جاءها المخاض**. وضعنا ونحن نبكي مثل نوجيكو التي أصابتها الحمى ولم تستطع أن تنهض طوال ثلاثة أشهر. وضعنا بسهولة، في ساعتين، ثم أصابنا الصداع لمدة خمس سنوات. وضعنا بعد أن هجرَنا زوجُنا بستة أشهر طفلةً ما زلتُ نادمة على التخلي عنها. وبعدها، لم

Twitter: @ketab_n

أفلح في الحمل قطّ. وضعنا خفية، في الغابة، طفلا كان زوجي يعلم أنّه ليس من صُلبه. وضعنا على غطاء سرير مكويّ، مزدان بالأزهار، في ماخور بأوكلاند، ونحن نسمع الأنّات عبر الحاجز الفاصل. في بنسيون ببيتالونا، بعد أسبوعين من مغادرة منزل القاضي كارميخائيل بروسيان ستريت. وضعنا بعد أن ودّعنا معلّمتنا المسز ليبّنْكوت التي لم تكن تريد أن تستقبل ضيوفَها امرأةٌ حامل. سيكون ذلك غير لائق. وضعنا بمساعدة زوجة رئيس العمال، السنيورة سانتوس التي مسكتنا من الفخذين وقالت لنا. إمبوجي! إمبوجي! إمبوجي![1] وضعنا بينما كان زوجنا يقامر في شيناطاون، ولما عاد سكران عند الفجر، لم نكلّمه طوال خمسة أيام. لقد خسر كل أموال الموسم في ليلة. وضعنا في عام القرد. وضعنا في عام الديك. وضعنا في عام الكلب، والتنين، والجرذ. وضعنا، مثل أوراكو، في ليلة مقمرة. وضعنا ذات أحد، في هُرّي أنثينيتاس، ومن الغد، أوثقنا الرضيع على ظهورنا وذهبنا لجني الثمار في الحقول. وضعنا من الأطفال كمّا كبيرا سرعان ما جعلنا ننسى عدّ الأعوام. أنجبنا نوبيو وشوجيرو وأياكو. طاميجي الذي يشبه أخانا في كل ملمح، وكنا نتأمله بمنتهى السعادة. أوه، هذا أنت! أنجبنا آيكيشي الذي يشبه جارنا، فلم يعد زوجنا بعد ذلك ينظر إلينا في عيوننا البتة. أنجبنا ميسوزو التي ولدت والحبل السري حول رقبتها مثل مسبحة وردية، وفهمنا أنها ستكون في يوم ما راهبة. تلك علامة من بوذا. أنجبنا دايسوكي الذي كان له في أذنيه رَوْمان طويلان، وفهمنا أنه سيكون في يوم ما غنيا. أنجبنا ماساجي الذي جاء في وقت متأخر، وقد بلغنا عامنا الخامس والأربعين، وفقدنا كل أمل في وريث. كنت أحسب أني فقدت آخر بيضاتي من زمان. أنجبنا

(1) بالبرتغالية في النص الأصلي Empuje !: ادفعي!

Twitter: @ketab_n

فوجيكو التي بدا أنها عرفت صوت أبيها في الحال. كان يغني لها كل ليلة وهي في بطني. أنجبنا يوكيكو ومعناه «ثلج». أسانو التي كان لها فخذ سميك ورقبة قصيرة ولو كانت ولدا لكان أفضل. أنجبنا كامشيو التي كانت دميمة بشكل جعلنا نخشى ألا نجد لها زوجا أبدا. لها وجه يوقف الزلزال في الحال. أنجبنا أطفالا كانوا على درجة من الجمال ما جعلنا نشكّ أنهم منا، أطفالا كانوا مواطنين أمريكيين، وباسمهم يمكننا أخيرا أن نوقّع عقدا لاستثمار الأرض. أنجبنا أطفالا يعانون من المغص، أطفالا بأقدام مشوهة، أطفالا زرقا ومُعتلّين، وضعنا دون أمهاتنا اللاتي كان يمكن أن يعرفن بالضبط ما ينبغي فعله. أنجبنا أطفالا بستّ أصابع وحوّلنا عيوننا حين بدأت القابلة تشحذ سكينها. لا شك أنك أكلت سرطانا أثناء الحمل. أصابنا سيلان أبيض منذ الليلة الأولى مع زوجنا فأنجبنا أطفالا مكفوفين. أنجبنا توأمين، وهذا نذير شؤم، فطلبنا من القابلة أن يتحوّل أحدهما إلى «زائر يوم». اختاري بنفسك أيهما تريدين. أنجبنا أحد عشر طفلا خلال خمسة عشر عاما، ولكن لم يعش منهم سوى سبعة. أنجبنا ستة أولاد وثلاث بنات قبل سنّ الثلاثين، وذات ليلة، دفعنا زوجنا وقلنا له بلطف: «كفاية.» بعدها بتسعة أشهر، أنجبنا صوئيكو ومعناه «الأخير». «أوه، واحدا آخر!» طالب زوجنا. أنجبنا خمس بنات وخمسة أولاد بتواتر منتظم قدره ثمانية عشر شهرا، وفي يوم، أي بعد ذلك بخمسة أعوام، أنجبنا طوئيشي ومعناه «الحادي عشر». هو عربة المؤخرة. أنجبنا حتى بعد أن سكبنا الماء البارد على بطننا وقفزنا مرارا عديدة من أعلى الشرفة. لم أفلح في فكّ لصاقه. أنجبنا حتى بعد أن جرعنا الشراب الذي أعدته لنا القابلة لتجنيبنا حملا جديدا. زوجي أصيب بالتهاب الرئة وكانوا بحاجة إلي في الحقول. لم ننجب خلال الأعوام الأربعة

Twitter: @ketab_n

الأولى من زواجنا، عندئذ قدّمنا قربانا للإلهة إيناري، فأنجبنا ستة أولاد تباعا. أنجبنا من الأطفال ما جعل رحمنا متدليا، وكان لا بدّ من شدّ وسطنا بحزام خاص لإبقائه في الداخل. كدنا نلد، ولكن الطفل كان دائرا إلى جنب ولم تخرج منه غير ذراع. كدنا نلد ولكن الرأس كان كبير الحجم، بعد ثلاثة أيام رفعنا عيوننا نحو زوجنا وقلنا له: «رجاء، اعذرني»، قبل أن نلفظ أنفاسنا. وضَعنا ولكن الرضيعة كانت واهنة القوى لا تقدر على البكاء، لذلك تركناها كامل الليل في مهد قرب الموقد. إذا اجتازت الليل فسوف تعيش. ولدنا ولكن المولود كان نصفه ذكرا ونصفه أنثى، فخنقناه ببعض الخرق. ولدنا ولكن لبننا لم يصعد قطّ، وفي نهاية الأسبوع مات المولود. ولدنا ولكن الطفل مات من قبل في بطننا فدفنّاه عاريا في أحد الحقول، قرب جدول ماء، وبما أننا كنا كثيري التنقل، لم نعد نذكر أين يوجد.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الأطفال

كنا نضعهم بكل رفق في الحفر والأتلام، وفي سلال السَّوحر تحت الأشجار. نتركهم عراة على الأغطية، فوق حصر من القش المنسوج، على حافة الحقول. نضعهم في صناديق التفاح الفارغة، ونحملهم على سواعدنا كلما أتممنا غرس صف من الفاصوليا. عندما كبروا صاروا أكثر اهتياجا، فكنا نوثقهم في بعض الأحيان إلى كرسيّهم. وفي قلب الشتاء، نربطهم على ظهورنا لكي نذهب لتقليم الكروم في ردّينغ، على الرغم من أنّ البردَ كان قارسا في بعض الصباحات، بشكل يجعل آذانهم تتجمد وتنزف. وفي بداية الصيف بستوكتون، كنا نتركهم في خنادق صغيرة بقربنا، وننصرف لجمع بواكير البرقوق وقلع البصل ثم وضعه في أكياس. كنا نتركهم يلعبون بالعصي في غيابنا، وننناديهم بين الفينة والأخرى كي يعلموا أننا لا نزال هناك. **لا تزعج الكلاب. لا تلمس النحل. لا تبتعد لأن بابا سوف يغضب كثيرا.** وعندما يتعبون وينخرطون في البكاء، لا حلية لنا غير أن نواصل العمل فنحن نعلم أننا لو توقّفنا فلن نتوصل أبدا إلى تسديد ديوننا. **ماما لا تستطيع أن تأتي.** وبعد برهة، تتضاءل حدة نداءاتهم ويكف بكاؤهم. وفي آخر النهار، عندما يختفي الضوء من السماء، نذهب لإيقاظهم في المكان الذي ناموا فيه، فننفض التراب عن شعرهم. **حان وقت الرجوع إلى البيت.**

بعضهم كانوا ذوي إرادة قوية، عنيدين لا يسمعون شيئا مما نقوله لهم. في حين كان الآخرون أكثر سكينة من بوذا نفسه. **جاء إلى**

Twitter: @ketab_n

الدنيا مبتسما. أحدهم كان يحبّ أباه أكثر من أيّ شيء. والآخر كان يكره الألوان الفاقعة. ذلك، لم يكن يستطيع الذهاب إلى أي مكان دون سطله الصفيح. وتلك، انفطمت في شهرها الثالث عشر، أشارت بإصبعها إلى كوب اللبن على مبسط السلع وقالت: «أريد.» كثيرون كانوا على درجة من الرصانة لا تناسب سنّهم. قالت العرّافة إنه وَلَدٌ بروح شيخ عجوز. كانوا يتصرّفون حول المائدة مثل الكبار. لا يبكون أبدا. لا يتذمرون أبدا. لا يتركون أبدا عصيّهم مغروزة في الأرز. كانوا يلعبون فرادى كامل اليوم دون ضجيج، ونحن نعمل غير بعيد عنهم في الحقول. كانوا يرسمون على الأرض طوال ساعات. وعندما نحاول حملهم على سواعدنا للعودة إلى البيت، يهزون رؤوسهم قائلين: «أنا ثقيل» أو: «استريحي يا أمي.» كانوا ينشغلون علينا حينما نتعب. ينشغلون علينا حينما نحزن. وحينما تؤلمنا ركبنا أو حينما نكون في أسوأ فترات الشهر كانوا يعلمون بذلك دون أن ننطق بكلمة. ينامون الليل معنا، كالجراء، على ألواح من الخشب يغطّيها العلف، ولأول مرة منذ قدومنا إلى أمريكا، لم يكن يزعجنا أن ينام شخص في سريرنا.

وكانت عواطفنا تميل دائما إلى واحد منهم. لعلها تهفو إلى مولودنا الأول إيشيرو الذي أحسسنا بفضله أننا أقل وحدة من ذي قبل. زوجي لم يكلمني منذ أكثر من سنتين. أو تنجذب إلى ولدنا الثاني إيوئيشي ذي الأربع سنوات الذي تعلم الإنكليزية بمفرده. إنه عبقري. أو إلى صونوكو التي تجذب كمّنا بإلحاح ثم تنسى ما تريد قوله. «ستستحضرينه فيما بعد»، هكذا كنا نقول لها، ولكنها لا تستعيده أبدا. بعض منا كن يفضّلن بناتهن، وكن لطيفات طيبات، وأخريات، كأمهاتنا من قبلنا، كن يفضلن أولادهن. هم أكثر إنتاجا في المزرعة. كنا نطعمهم أكثر من أخواتهم. ونقف في صفهم أثناء

Twitter: @ketab_n

المشاجرات. نكسوهم أحسن كساء. ونصرف حتّى آخر بيني بحوزتنا لنَقودَهم إلى عيادة الطبيب إذا ما أصابتهم الحمّى، بينما نعالج بناتنا بأنفسنا في البيت. **أضَعُ لَزقة خردل عل صدرها وأبتهل إلى إله الريح والنزلات السيئة. لأنّنا كنا نعرف أن بناتنا سيهجرننا** حال زواجهنّ، في حين أنّ أولادنا سوف يعتنون بنا عندما نهرم.

عموما، لم يكن لأزواجنا صلة بهم. هم لا يغيرون حفاظاتهم أبدا. لا يغسلون الأواني الوسخة أبدا. ولا يلمسون المكنسة أبدا. وعلى الرغم من التعب الّذي يهدّ أجسادنا، فإنّهم لا يقومون بأيّ شيء حين يعودون في المساء من الحقول غير قراءة الجريدة، فيما ننهمك نحن في إعداد العشاء للأطفال، وغسل الأواني ورتق أكداس الثياب حتى ساعة متأخرة من الليل. لا يتركوننا أبدا ننام قبلهم. لا يتركوننا أبدا نصحو بعد شروق الشمس. **ستعطين مثلا سيئا للأطفال.** لا يمنحوننا أبدا فرصة استراحة ولو كانت بخمس دقائق. كانوا صموتين، متعبين، يدخلون البيت أو يغادرونه بلباس العمل الأزرق الملطخ بالوحل وهم يغمغمون بكلام عن العِقّان[1]، عن سعر الفاصوليا الخضراء، عن عدد صناديق الكرفس التي يأملون جنيها هذا العام. ومن النادر أن يخاطبوا أطفالهم، أو يتذكّروا فيما يبدو حتّى أسماءهم. **قولي للولد الثالث أن يقوّم جذعه إذا مشى.** وعندما يصخب الجو حول المائدة أكثر ممّا ينبغي، يضربون كفا بكفّ ويصرخون: «كفى !». وفي المقابل، لا يبدي أطفالهم أي رغبة في الحديث إليهم إطلاقا. فإذا ما أرادوا أن يقولوا لهم شيئا ما، فإنهم يمررونه بواسطتنا. **قولي للأب إني أحتاج إلى خمسة سنتات. قولي للأب إنّ هناك مشكلا مع أحد الخيول. اسألي الأب لماذا هو هرِمٌ إلى هذا الحدّ.**

(1) العِقّان أو الشّكير: غصن أو ساق تنمو من البراعم العرضية.

Twitter: @ketab_n

بدأنا تشغيلهم في الحقول بمجرّد أن صاروا قادرين على التحمّل. كانوا يقطفون معنا الفراولة في سان مارتن. يجمعون معنا الجلبان في لوس أوسوس. يتسللون خلفنا في مزارع الكروم بهوغسن وديل راي حيث كنا نقص عناقيد العنب ونضعها على حُصَر الصفصاف لتجف تحت الشمس. كانوا يغترفون الماء. يقلعون الشجيرات اليابسة. يعزقون الأرض لقلع الأعشاب الطفيلية. يقطعون الحطب. يحرثون في الصيف، تحت القيظ الثقيل في إمبريال فالي والحال أنهم لم يتمّوا نموّهم بعد. بعضهم كانوا بطيئين، حالمين، يغرسون خطأ صفّا كاملا من الكرنب بالمقلوب. وآخرون كانوا أسرع من أكثر العمّال خبرة في فرز الطماطم. كثيرون كانوا يتذمرون. يحسّون بوجع في البطن، في الرأس، ويثير الغبار عيونهم بشكل فظيع. وآخرون كانوا ينتعلون جزمهم كل صباح دون أن يحتاجوا إلى تذكير. أحدهم كان له مقراض مفضّل يشحذه في الهُري كلّ مساء بعد العشاء ولا يسمح لأحد بلمسه. إحداهن كانت دائمة التفكير في الحشرات. **إنّها موجودة في كل مكان.** وأخرى جلست ذات يوم وسط صفوف البصل وقالت إنها تتمنى لو لم تولَد. فنتساءل عن صواب قرارنا حينما أنجبناهم. **لم نملك قط ما يكفي من المال كي نشتري لهم بعض اللعب.**

ورغم ذلك كانوا يمرحون ساعات طوالا مثل عجول في الحقول. كانوا يَقدّون سيوفا من قضبان الكرم ويتبارزون تحت الشجر. يصنعون طيارات من ورق الجرائد والبَلزا[1]، يربطون سكينا إلى الخيط، ويتبارون بها في الجوّ عند اشتداد الريح. يهيئون دمى بلَيّ سلك الحديد والقش، ثم يعذّبونها في الغابة بعصيّات مسنونة. يمارسون لعبة التخفي في البساتين تحت ضوء القمر كما كنا نفعل في

(1) البَلْزا: خشب خفيف قويّ يستعمل في صنع الأطواف وطيارات الورق.

Twitter: @ketab_n

اليابان. يتنافسون في ركل علب الصفيح الفارغة، ورمي السكاكين، وفي لعبة «حجرة - ورقة - مقص». كانوا يُجْرون مسابقات لمعرفة أيّهم يصنع صناديق أكثر عشية السوق الأسبوعية، وأيهم يبقى وقتا أطول معلقا بفرع شجرة جوز دون أن يطلق يده. كانوا يشكّلون طائرات وعصافير من الورق ويتابعون تحليقها بأنظارهم. يجمّعون أعشاش الزّاغ، وجلود الأفاعي، ودرق الجُعران، والبلوط، وأوتاد حديد صدئة يلتقطونها في طريقهم. كانوا يتعلمون أسماء الكواكب. ويقرأ بعضهم لبعض خطوط الكف. **خطّ حياتك قصير بشكل غير طبيعيّ.** يتنبّأ كلّ منهم للآخر بالمستقبل. ستقوم في يوم ما برحلة في القطار. كانوا يعودون إلى الهُري بعد العشاء وبأيديهم مصابيح البترول ليلعبوا لعبة الأب والأم. **والآن اضربي بطنك واصرخي كأنّك ستموتين.** وفي ليالي الصيف الحامية، حينما تقارب الحرارة سبعًا وثلاثين درجة، كانوا يبسطون مفارشهم تحت أشجار الخوخ، ويحلمون بخلوية على عدوة الوادي، بممحاة جديدة، بكتاب، بكُرة، بدمية من الخزف يمكن إغماض عيونها البنفسجية، وبالارتحال عن المزرعة في يوم من الأيّام إلى العالم الرحيب.

بعيدا عن الضيعة، فيما يقال، يوجد أطفال شاحبون يثيرون الاستغراب، يكبرون دون أن يغادروا بيوتهم أبدا، ولا يعلمون شيئا عن الحقول والجداول. بل إن بعضهم لم ير في حياته شجرة. **أمّهاتهم لا يتركنهم يلعبون تحت الشمس.** بعيدا عن الضيعة، فيما يقال، توجد بيوت بيضاء فاخرة، مراياها مذهّبة الأطر، مقابض أبوابها من الكريستال، ومراحيضها من الخزف تتظّف بمجرد جذب سلسلة. **وليس بها رائحة.** بعيدا عن الضيعة، فيما يقال، تُستعمل حشايا بجوفها لوالب معدنية صلبة، تكون في بعض الأحيان ألطف من السُّحُب

Twitter: @ketab_n

(أخت غورو كانت قد اشتغلت خادمة بالمدينة، ولما عادت، روت لنا أن الحشايا كانت لينة بشكل جعلها تفضّل النوم على الأرض). بعيدا عن الضيعة، فيما يقال، توجد أمّهات يتناولن فطورهن في الفراش كل صباح، وآباء يقضون نهارهم في المكتب، جالسين على الأريكة، يصرخون بأوامر في الهاتف - ويتقاضون عن ذلك أجرا. بعيدا عن الضيعة، فيما يقال، حيثما ذهبنا، نظل غرباء، وإذا صادف أن أخطأنا الباص، فقد لا نعود إلى البيت أبدا.

كانوا يصيدون الشراغيف واليعاسيب على حافة الجدول، ثم يضعونها في بواقيل من الزجاج. وكانوا يرقبوننا ونحن نخنق الدجاج. يبحثون في الهضاب عن المكان الذي رقد فيه الأيّل، فيتمددون بدورهم في ذلك العش المستدير ذي الأعشاب المبسوطة. ينتزعون ذيل السحالي ليروا كم وقتا يلزم كي ينبت من جديد. **لا شيء يحدث.** يعودون بفراخ دوريّ تائهة، يلقمونها جريش الأرز المحلّى بالسكر بواسطة مسواك، ولكن حين ينهضون في الصبح، يجدونها ميتة. فنخبرهم بأنّ «الطبيعة لا يهمّها من ذلك أي شيء». كانوا يجلسون على السياج ليشاهدوا مُزارع الجوار يقود بقرته إلى أحد الثيران. شاهدوا قطة تأكل صغارها. فأعلمناهم بأنّ ذلك «يمكن أن يحدث». كانوا يسمعوننا حين يهم بنا أزواجنا، رافضين تركنا وشأننا، رغم أن جمالنا ذَوَى منذ وقت طويل، وهم يردّدون «لا يهمّ ماذا تشبهين في الظلام». كانوا يستحمّون معنا كل مساء، خارج البيت، في أحواض ضخمة مُحمّاة على النار، ويغوصون حتى الذقن في الماء الساخن. يرتدّون برؤوسهم إلى الوراء. يغمضون عيونهم، يمسكون أيدينا. يسألوننا. **كيف نعرف أننا متنا؟ ولو لم توجد الطيور؟ ولو تغزو أجسادنا حبوب حمر ولكن دونما ألم ؟ وهل صحيح أن الصينيين يأكلون سيقان الخنازير؟**

Twitter: @ketab_n

كان لهم تمائم تحميهم. سدّادة حمراء. كجّة من زجاج. بطاقة بريدية تُمثّل حسناوين روسيتين تتسكعان على عدوة وادي صونغهوا، أرسلها عمّ يقيم بمنشوريا. لهم ريش أبيض يحملونه في جيوبهم حيثما ولّوا، وحصى ملفوف في خرقة ناعمة يحتفظون به في أدراج - لكي يمسكوه بين أيديهم في اللحظات العصيبة حتى يزول الضيق. لهم كلمات سرية يهمسون بها في ما بينهم حينما ينتابهم الخوف. أشجار مفضلة يتسلقونها إذا ما أرادوا الانفراد. **ليذهب كل واحد في سبيله.** لهم أخواتهم الأثيرات اللاتي ينامون على أذرعهنّ بسهولة. إخوة كبار يكرهونهم ويرفضون الاختلاء بهم. **سوف يقتلني.** كلاب لا يفارقونها ويسرّون إليها بما لا يريدون إطلاع أحد عليه. **كسرتُ غليون أبي، وردمته تحت شجرة.** كانت لهم قواعدهم الخاصة. **لا ينبغي النوم والوسادة ناحية الشمال.** (هوشيكو نامت ووسادتها موجهة ناحية الشمال، فانقطع نفَسُها في جوف الليل وماتت). لهم طقوسهم الخاصة. **ينبغي دائما رش الملح في المكان الذي يمرّ منه أحد المتشردين.** لهم معتقداتهم الخاصة. **عندما نرى عنكبوتا في الصباح، فهذا معناه أن الحظ سيبتسم لنا. إذا تمددنا بعد الأكل، فسنتحول إلى بقرة. إذا حملنا سلة على رؤوسنا، فسوف نكف عن النمو. زهرة وحيدة تعني الموت.**

كنا نروي لهم حكايات عن طيور دوريّ مقصوصة الأذيال، وطيور كركي مليئة بالامتنان، وحمائم صغيرة لا تنسى أبدا أن تترك آباءها وأمهاتها تحط على أكثر الأغصان علوا. كنا نحاول تعليمهم السلوك الحسن. **لا تُشرْ بطرف عصيّاتك. لا تمتص أبدا عصيّاتك. لا تأكل أبدا اللقمة المتبقية في الصحن.** كنا نهنئهم إذا كانوا لطيفين مع الآخرين مع تذكيرهم بأنهم لا ينبغي أن ينتظروا جزاءً عن أعمالهم

Twitter: @ketab_n

الطيّبة، وكنّا نوبّخهم إذا أرادوا الإجابة، ونعلّمهم ألاّ يقبلوا الصدقة، وألاّ يتفاخروا. لقد نقلنا إليهم كلّ ما نعلمه. الثراء يبدأ بفلس. أن تتلقّى الضربات خير من أن توجّهها. ينبغي إعادة كلّ ما أُعطيت. لا تكن صاخبًا كالأمريكان. لا تخالط الصينيين. **هم لا يحبّوننا**. تجنّب الكوريين. **هم يكرهوننا**. حاذر الفيليبينيين. **هم أدهى من الكوريين**. لا تتزوج أبدا شخصا قادما من أوكيناوا. **هؤلاء القوم ليسوا يابانيين بحقّ**.

كنّا نفقدهم في عزّ الصفر، وخاصّة في الريف، نفقدهم بسبب الخُناق أو الحصبة، أو الذبحة الصدرية، نفقدهم جرّاء السعال الديكي، أو بسبب تقيّحات غريبة تتحول في ليلة واحدة إلى غنغرة. أحدهم لسعه عنكبوت أسود في المخزن فعانى من الحمّى. وآخر أصيب في معدته بلبطة حافر من بغلتنا الرمادية المفضلة. وأخرى اختفت حين كنا نفرز الخوخ لنرصّفه في الصناديق داخل المخزن، وعلى الرغم من بحثنا عنها تحت كل حجرة، وخلف كل شجرة، فإنّنا لم نعثر لها على أثر، ولم نعد بعدها كما كنا. **فقدتُ طعم الحياة**. أحدهم سقط من الشاحنة حين كنا ذاهبين إلى السوق لبيع عشب الرواند، ودخل في غيبوبة لم يفق منها أبدا. إحداهنّ خطفها جاني إجاص في البستان المجاور كنا صددنا مراوداته مرارا. **كان عليّ أن ألبّي رغبته**. وأخرى أصيبت بحروق بليغة عندما انفجرت آلة التقطير خلف الهُري، ولم تعش بعدها أكثر من يوم. **وكان آخر ما قالته لي: «أمّاه، لا تنسي أن تنظري هناك، إلى السماء»**. كثير منهم هلكوا غرقا. في وادي كالافيراس. في لا ناشيميانتو. في قنال الرّي. في جوف مَغْلى كان يفترض أن نفرغه للّيل. وفي شهر أغسطس من كل عام، في عيد الموتى، كنا نوقد فوانيس ورقية نضعها على قبورهم لكي تستقبل أرواحهم التي تعود إلى الأرض في ذلك اليوم. وفي آخر النهار، عندما

Twitter: @ketab_n

يحين رحيلها، كنا نترك الفوانيس طافية على سطح الوادي لكي تدلها إلى طريق العودة بأمان، بعد أن صار كل واحد منهم بوذا مُقيما في بلد السعداء.

بعض منا لم يستطعن الإنجاب، وذلك أمَرّ وأشدّ. فمن دون وريث ينقل اسم العائلة، تختفي روح القدامى من الوجود. لديّ إحساس بأني قطعت كل هذه المسافة حتى أمريكا دون جدوى. أحيانا كنا نحاول الذهاب إلى إحدى المطبّبات، فتشرح لنا أنّ شكلَ رَحمنا سيّئ ولا ينفع معه أي شيء. «قدركن قررته الآلهة»، هذا ما كانت تقوله لنا، قبل أن ترينا باب الخروج. وأحيانا نذهب إلى عيادة الدكتور إيشيدا، الواخز بالإبر، فيُصرّح لنا بعد نظرة فاحصة: «يانغ[1] مفرط» ويعطينا حشائش لتغذية الينّ في دمنا. ولكن بعد ثلاثة أشهر، نجهض من جديد. بعضهن أرجعهنّ أزواجهن إلى اليابان، وظلّت الإشاعة تلاحقهن مدى الحياة. «مطلّقة»، هكذا كان يتمتم الجيران. ثمّ يُضيفون: «يبدو أنها جافة كالكرنيب.» بعضهنّ قصصن شعورهنّ وقدّمنها لإلهة الخصوبة لكي تساعدهن على الحمل، ولكنّ حيضهنّ تواصل في موعده كلّ شهر. وعلى الرغم من أن أزواجنا كانوا لا يكفون عن التكرار بأن لا فرق بالنسبة إليهم أن يكونوا آباء أم لا وأنّ كلّ ما يريدونه هو أن يهرموا بقربنا، فإنّنا لم ننقطع عن التفكير في الأطفال الذين لم ننجبهم. مازلتُ أسمع أصواتهم كلّ ليلة وهم يلعبون خارج البيت، وسط الأشجار.

في الحي الياباني، كنا نعيش ما بين ثمانية أفراد وتسعة في غرفة خلف صالون الحلاقة، وحمّاماتنا في شقق بالغة الصغر وعالية

(1) يانغ yang : مبدأ أساس في الفلسفة الطاوية الصينية يمائل تقريباً مفهوم الإيجابية.. يقابله يين yin الذي يمائل مفهوم السلبية.

Twitter: @ketab_n

الجدران، كانت مظلمة بشكل يفرض علينا إنارة المصابيح كامل اليوم.

كانوا يرققون الجزر في مطاعمنا. يكدسون التفاح على مناضد ثمارنا. يركبون دراجاتهم ويوزعون مشتريات الزبائن مرورا بباب الخدمة. يفصلون الأبيض عن بقية الألوان في مغاسلنا الواقعة تحت الأرض ويتعلّمون بسرعة التفريق بين الدم والنبيذ. كانوا ينظفون بنسيوناتنا. يغيرون المناشف والملاحف. يفرشون الأسرة. يكتشفون أشياء ما كان لهم أن يطّلعوا عليها. **ظننتُه يتعبّد، ولكنه كان قد فارق الحياة.** كل مساء، كانوا يحملون العشاء للأرملة العجوز بـ 4A، المسز كَوامورا من ناغازاكي التي كانت تعمل خادمةً بفندق دريكسل، ولم يكن لديها أبناء. **زوجي كان مقامرا ولم يترك لي سوى خمسة وأربعين سنتا.** كانوا يلعبون لعبة الـ«غو»[1] بمدخل العمارة مع الأعزب العجوز مستر موريطا الذي لا يزال بعد ثلاثين سنة من الخدمة كاوي ملابس **بالأمبريس هاند لاوندري. مرت الأعوام بسرعة.** كانوا يتبعون آباءهم من حديقة إلى حديقة حين يقومون بجولاتهم المهنية، ويتعلّمون تقليم الحواجز وقصّ أحواض العشب. يجلسون في انتظارنا على مقاعد خشبية بالحديقة العامة، ونحن نقوم بترتيب البيوت في ناحية الشارع الأخرى. **لا تتحدّث إلى الغرباء،** كنا نقول لهم. **اجتهد في المدرسة. تحلّ بالصبر. أيّا ما تصبحْ، لا ينبغي أن تنتهي إلى ما انتهيتُ إليه.**

في المدرسة، كانوا يظلّون جالسين في آخر الفصل، بثيابهم المصنوعة في البيت، حذو مكسيكيين، ويتكلمون بصوت خفيض حيِيّ. لا يرفعون أيديهم أبدا. لا يبتسمون أبدا. خلال فترة الاستراحة، يتجمّعون في ركن بالساحة ويتهامسون فيما بينهم بتلك اللغة الخفيّة

(1) Go: أقدم لعبة طاولة استراتيجية في التاريخ، لا تزال رائجة في الصين وكوريا واليابان، وتدور بين متنافسين يتباريان في وضع أحجار سود وبيض لتحقيق الفوز على الخصم.

Twitter: @ketab_n

المخجلة. في مطعم المدرسة، كانوا دائما في آخر الطابور. بعضُهم، وهُم الكبار في السنّ، كانوا يتكلمون الإنكليزية بصعوبة، وكلما أرادوا التعبير، ارتجفت ركبهم. إحداهنّ سألها الأستاذ عن اسمها فقالت: «ستة»، فظلت الضحكات ترنّ من حولها طوال أيام. وأجاب آخر بأنّ اسمه «مجرفة» فلصقته تلك الكنية مدى الحياة. كثير منهم كانوا يتوسّلون إلينا بألاّ نرسلهم إلى المدرسة، ورغم ذلك بدا أنهم تعلموا بعد بضعة أسابيع الاسم الإنكليزي لكل الحيوانات، وصاروا قادرين على قراءة كل اللافتات التي تصادفهم حينما نذهب إلى المدينة -الشارع ذو الأعمدة الخشبية العالية، يقولون، اسمه ستيت ستريت، وذاك الذي يوجد فيه حلاقون غير ملائمين، اسمه غروف، والجسر الذي ألقى منه مستر إيتامي بنفسه بعد انهيار السوق يدعى لاست شانس بريدج - وحيثما ولّوا كانوا يحسنون التعبير عن رغباتهم. **أريد شكلاطة بالْمَلْت المحمّص، من فضلك.**

كانت الكلمات القديمة التي علّمناهم إياها تختفي الواحدة تلو الأخرى من أذهانهم. نسوا تسمية الأزهار باليابانية. نسوا تسمية الألوان. تسمية الإله الثعلب، إله الرعد، إله الفقر الذي لا يمكن أن نهرب منه. **مهما عشنا في هذا البلد، فلن يتركونا نشتري أراضي** أبدا. كانوا ينسون اسم إلهة الماء، ميزو غامي، التي تحمي أوديتنا، وجداولنا، وتحرص على أن تكون آبارُنا نظيفة. ينسون الكلمات التي تدل على «نور الثلج»، «الجرادة ذات الجرس»، و«الهروب إلى الليل». ينسون الكلمات التي ينبغي النطق بها أمام هيكل أجدادنا الغابرين الذين يحرسوننا في الليل والنهار. ينسون كيف يَعدّون، وكيف يعبدون. صاروا يقضّون نهاراتهم غارقين في تلك اللغة الجديدة التي لا تزال حروفها الستة والعشرون تستعصي علينا على الرغم من أنّنا نعيش

Twitter: @ketab_n

في أمريكا منذ سنين. **كل ما تعلمته هو حرف x لكي أستطيع التوقيع في البنك.** كانوا ينطقون حرف اللام وحرف الراء بلا صعوبة. وحين نرسلهم إلى المعبد البوذي لتعلم اليابانية لا يتعلمون أي شيء. **السبب الوحيد الذي يدفعه إلى ذلك هو التنصّل من عمل الدكان.** ولكن عندما نسمعهم يتكلّمون أثناء النوم، كانت الكلمات التي تخرج من أفواههم - ونحن واثقات من ذلك - كلمات يابانية.

اتخذوا لأنفسهم أسماء لم نخترها لهم وكنّا نجد صعوبة في نطقها. واحدة أسْمَت نفسها دوريس. وأخرى بيغي. كثير منهم تسمّوا بجورج. صابورو أطلق عليه الجميع كنية «شينتوك»[1] لأن له ملامح صينية. وتوشيتاشي، كنية هارلم لأن بشرته داكنة. إيتسوكو سمّاها أستاذها، مستر سلايتر، إيستر، منذ يومها الأول بالمدرسة. وقد أخبرتنا بأنّ «ذلك هو اسم والدته»، فأجبناها: «تماما مثل اسمك». سومير اختارت فيوليت. وشيزوكو، شوغر. وماكوتو اكتفى بماك. شيغيهارو طاكاجي صار عضوا في الكنيسة الميتودية[2] في سن التاسعة واختار له اسم بولص. إديسون كوباياشي كان كسولا بطبعه ولكنه يملك ذاكرة فوتوغرافية ويحفظ أسماء كل من يصادفهم. غراس سوجيتا كانت لا تحب المثلجات. **إنها باردة فوق اللزوم.** ماتسوتارو لم يكن ينتظر شيئا ولم يحصل في المقابل على أي شيء. ميني هوندا، بقامته التي تبلغ مترا وخمسة وتسعين سنتمترا، كان أطول ياباني رأيناه في حياتنا. توف ياماشي كان له شعر طويل وكان يحب أن يلبس ما يلبس كالفتيات. هاياشي الأشول كان نجم الرماية في فريق

---

(1) كنية تطلق على الصينيين بصفة خاصة والآسيويين عامة للتحقير.

(2) الميتودية: هي حركة دينية إصلاحية قادها في أوكسفورد تشارلز وجون ويزلي عام 1729 لإحياء كنيسة إنكلترا.

Twitter: @ketab_n

البيسبول بإعدادية إمرسون. سام نيشيمورا أُرسل إلى طوكيو لتلقّي تربية يابانية حميدة، ثم عاد بعد ست سنوات ونصف. ففرضوا عليه أن يعيد كل شيء من الصفر. ديزي تاكادا كانت حسنة الخلق وكانت تحب تكرار كل شيء ثلاث مرات. عائلة ليستر ناكانو كانت تشتري كل ملابسها من الأعمال الخيرية. والدة تومي طاكاياما -مثلما يعرف الجميع - كانت مومسا. **لها ستة أطفال من خمسة رجال مختلفين. اثنان منهم كانا توأما.**

كنا نتعرف عليهم بصعوبة. كانوا أكبر قامة منا، وأضخم حجما، صاخبين إلى حد بعيد. وكنت مثل بطة رخَمَت بيض وزة. كانوا يفضلون صحبتهم في ما بينهم على صحبتنا، ويتظاهرون بأنهم لا يفقهون شيئا مما نقول. بناتنا كن يسرن بخطى واسعة، على الطريقة الأمريكية، ويتنقلن في عجلة لا أثر فيها للوقار. كن يرتدين ملابسهن الرخوة، ويهززن أردافهن كالفرس. يثرثرن مثل الكوليّين[1] فور عودتهن من المدرسة وهنّ يردّدن كلّ ما يخطر ببالهن. **أذُن المستر ديمسي مثنية.** صار أطفالنا عظيمي الجثة. يلحّون على أكل البيض بالبيكون في كل فطور بدل الحساء بعجين الفاصوليا. ويرفضون استعمال العُصيّات. يشربون لترات ولترات من الحليب. يغرقون أرزهم بالكيتشاب. يتكلمون إنكليزية جيدة، مثل إنكليزية الراديو تماما، وكلما رأونا ننحني إجلالا لرب المطبخ ونحن نضرب كفا بكف، يديرون عيونهم ويهتفون بنا: «ماما، رجاء!»

والأدهى من ذلك كلّه أنهم كانوا يحسّون أننا مبعث خجل بالنسبة إليهم. هم يخجلون من قبعاتنا القشية البائسة وثيابنا الرثة، من لهجتنا الواضحة، من أيدينا المتيبسة، المشقّقة، من وجوهنا ذات

(1) ج. كولي: حمّال أو عامل صينيّ أو هنديّ.

Twitter: @ketab_n

التجاعيد الغائرة التي دبغتها أعوام طويلة في جمع الخوخ وتقليم الكروم في عز الحرّ. كانوا يرغبون في آباء حقيقيين يذهبون إلى العمل صباحا في بذلات أنيقة ولا يجزّون المرجة إلا يوم الأحد. كانوا يرغبون في أمهات مختلفات، أمهات أفضل، لا يبدو عليهن أثر الإرهاق. **ألا تستطيعين وضع قليل من أحمر الشفاه؟** كانوا يخشون أيام المطر في الريف، حيث كنا نأتي عند خروجهم من المدرسة في شاحنات فلاحية عتيقة. كانوا لا يستدعون أبدا رفاقهم إلى شققنا المكتظة في الحي الياباني. **نحن نعيش عيشة الشحاذين.** وكانوا لا يريدون أن يُرَوا برفقتنا في المعبد يوم عيد ميلاد الإمبراطور. ولا يحتفلون معنا كل عام بتحرير الحشرات عند نهاية الصيف. ويرفضون أن يمسكوا يدنا للرقص أمام الناس في مهرجان اعتدال الخريف. ويسخرون منا كلما ألححنا في ذلك، ومن الغد يطأطئون لنا رؤوسهم. فيبدو أن كل يوم يمرّ ينتزعهم شيئا فشيئا من سطوتنا.

بعضهم حصّلوا زادا لغويا ممتازا وصاروا أوائل فصولهم. فازوا بجوائز عن تحريرهم إنشاء حول الأزهار البرية في كاليفورنيا. وحصلوا على شهادات سامية في العلوم. جمعوا عددا من علامات الاستحسان لم ينلها غيرهم من التلاميذ. بعضهم كان يتأخر في الدراسة كل عام خلال موسم الجني فيضطر إلى الرسوب. إحداهن حملت في سن الرابعة عشرة فأُرسلت لتعيش مع جديها اللّذين كانا يملكان ضيعة لتربية دود القزّ في منطقة نائية غرب اليابان. **تكتب إلي كل أسبوع لتسألني متى ستعود.** أخرى انتحرت. كثيرون انقطعوا عن الدراسة. بعضهم انحرفوا. كوّنوا عصاباتهم الخاصة، بقواعدهم الخاصة. **لا سكاكين. لا بنات. الصينيون ممنوعون.** كانوا يخرجون ليلا للعراك. **ما رأيكم لو نذهب لكسر أشداق الفيليبينيين؟** وإذا لم

Twitter: @ketab_n

تسعفهم الحيلة في مغادرة الحيّ، يبقون حيث هم ويتشاجرون في ما بينهم. أيها الدجاب[1] القذر! آخرون يطأطئون رؤوسهم محاولين ألا يلحظهم أحد. لا يحضرون الحفلات (ليسوا مدعوين). لا يعزفون على أية آلة (ليس لهم آلة). لا يحبون الرقص (ليس لهم الأحذية اللازمة). كانوا يهيمون كالأشباح في الممرات، وعيونهم شاردة، وكتبهم مضمومة إلى صدروهم، وكأنهم تائهون في أحلامهم. إذا نودي باسمهم عرضا لا يسمعون. وإذا تسمّر أمامهم في الشارع من يعيرهم بشتى النعوت، اكتفوا بهزّ رؤوسهم ومواصلة طريقهم. وإذا أعطوا في القسم أقدم كتب في الرياضيات هزّوا أكتافهم بلا مبالاة. على أية حال لَم أحبَ الجبر مطلقا. وإذا ظهرت صورهم في آخر صفحة من ألبوم الفصل، تصنّعوا عدم الاكتراث. تلك هي الحال، يقولون في أنفسهم. ثم: وبعد؟ ثم: أية أهمية؟ لأنهم يدركون أنهم، مهما فعلوا، لن يكونوا مقبولين. لسنا سوى كدس من رؤوس بوذا.

كانوا يعرفون أيّ الأمهات يقبلنهم في بيوتهن (مسّز هنكه، مسّز وودروف، مسّز ألفريد شندلر الثالث) ومَن يرفضن قبولهم (كل الأخريات). يعرفون أيّ الحلاقين يرضون بقص شعورهم (السود) ومَن ينبغي تجنّبهم (المتذمّرون في الناحية الجنوبية لغروف ستريت). يعرفون أنهم لن يحصّلوا أيّ شيء من هذه الأشياء: أنف أكثر شمما، بشرة أكثر صفاء، أرجل أكثر طولا يمكن ملاحظتها عن بعد. كلّ صباح، أقوم بعمليات تمطيط ولكن يبدو أنّ ذلك لا جدوى منه. كانوا يعرفون متى يُسمح لهم بالعوم في مسبح الـ «إيمكا»[2] -أيام الاثنين مخصّصة للملوّنين- ومتى يستطيعون الذهاب إلى سينما «مسرح

(1) Jap: لفظة ياباني مختصرة تطلق على الشخص للتحقير.

(2) YMCA: الأحرف الأولى للجمعية المسيحية للشباب Young Men›s Christian Association

Twitter: @ketab_n

بنتاجس» في المدينة (إطلاقا). كانوا يعرفون أنه ينبغي عليهم مكالمة المطعم أولا. **هل تقدّمون أكلاتكم لليابانيين؟** يعرفون أن الواحد منهم لا ينبغي أن يخرج إلى الشارع وحيدا في النهار، وماذا ينبغي عليه أن يفعل إذا ما وجد نفسه محصورا في شارع ضيّق عند هبوط الليل. **قل لهم إنك تحذق الجودو.** وإذا لم تُجد نفعًا كان لزاما عليهم أن يتعلموا استعمال قبضاتهم. **هم يحترمونك إن كنت قويًا.** يعرفون إيجاد حُماة يحمونهم. ويعرفون كظم غضبهم. **لا، بالتأكيد، هذا لا يزعجني. حسنا. يمكنك ذلك.** وكانوا يعرفون كيف يُخفون خوفهم. ويعرفون أن البعض يولدون في طالع أسعد من سواهم وأن الأمور في هذا العالم لا تجري دائما كما نشتهي.

ورغم ذلك، كانوا يحلمون. واحدة أقسمت أنها ستتزوج قسًّا لكي لا تضطر إلى قطف الثمار يوم الأحد. وكان غيرُها يريد توفير ما يلزم من نقود كي يمتلك ضيعة. وآخر يريد زرع الطماطم مثل والده. وأخرى تريد أن تكون أي شيء إلا هذا. أحدُهم يريد غراسة أشجار الكروم، وغيرُه يريد أن تكون له علامته المميزة. **سأسمّيها جنائن فوكودا.** واحدة سئمت الانتظار لمغادرة الـ«رانش». وواحدة تريد الالتحاق بالجامعة حتى وإن لم يوجد شخص واحد، على حد علمها، قد غادر المدينة من قبل. **أعرف أن ذلك جنون ولكن...** واحد كان يعشق العيش في الريف ويرغب في البقاء فيه مدى الحياة. **هنا أحسن. فلا أحد يعرف من نكون.** وهذه تريد المزيد دون أن تعرف بالضبط ما هو. **هذا، هذا لا يكفيني.** ذاك يريد آلة جوقة سوينغ كينغ مع شارلستون. وهذا يريد أن يسلك الطريق الذي يحبّ عند توزيعه الجرائد. تلك تريد غرفة خاصة بها، مع قفل بالباب. **كلّ من يريد الدخول، عليه أن يطرق الباب أوّلا.** وهذا يريد أن يصبح فنانا ويعيش في غرفة ذات

Twitter: @ketab_n

سقف منحن في باريس. وتلك تريد دراسة التبريد. يمكن التعلّم عن طريق المراسلة. واحد يريد بناء الجسور. وواحدة تريد العزف على البيانو. واحد يريد أن يكون له بسطة فواكه خاصة على حافة الطريق بدل أن يعمل لحساب رجل آخر. وأخرى تريد الدخول إلى أكاديمية ميرّيت للسكرتارية والفوز بوظيفة في مكتب. عندئذ أكون قد وصلتُ. هذا يريد أن يصبح «غريت طوغو»[1] الجديد ويساهم في مباريات الكاتش المحترف. والآخر يريد أن يصبح سيناتور دولة. واحدة تريد أن تصبح مصففة شعر وتفتح صالونها الخاص. والأخرى أصيبت بشلل الأطفال و ترغب فقط في التنفس دون رئة من فولاذ. هذه تريد أن تصبح خياطة بدبلوم. وتلك تريد أن تصبح طبيبة. واحد يريد أن يكون أختَه. وذاك يريد أن يصبح قاطع طريق. وتلك تريد أن تصبح نجمة. وعلى الرغم من أننا كنا نرى الغيوم تتراكم في الأفق، فإنّنا لم ننطق بكلمة واحدة وتركناهم يحلمون.

(1) توش طوغو أو طوغو العظيم: الاسم الرياضي لمصارع الكاتش الياباني هارولد ساكاتا (1920-1982).

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

خونة

بدأت الشائعات تأتينا منذ اليوم الأول من الحرب.

كانوا يتحدثون عن قائمة، عن أناس اختُطفوا في عزّ الليل، عن مصرفيّ ذهب إلى مكتبه ولم يعد مرّة أخرى، عن حلاق اختفى خلال استراحة الغداء، عن صيادين مفقودين. يتحدثون، هنا وهناك، عن بنسيون اقتحمته الشرطة، عن متجر وقعت مصادرته، عن جريدة تم إغلاقها. ولكن كل ذلك كان يحدث في مكان آخر. في وديان نائية وقرى بعيدة. في المدينة، حيث الفتيات ينتعلن أحذية بكعاب عالية، ويصبغن شفاههن ويرقصن طوال الليل. «تلك أمور لا علاقة لها بنا» كنا نقول. بقينا نساء بسيطات نعيش في جو هادئ ولا نغادر بيوتنا. لن يأتي ما يزعج أزواجنا.

بقينا في بيوتنا طوال أيّام، والنوافذ مغلقة، نستمع لأخبار الحرب في الراديو. كنا محونا أسماءنا من صناديق البريد. سحبنا أحذيتنا الموضوعة أمام أبوابنا. امتنعنا عن إرسال أطفالنا إلى المدرسة. وفي الليل، كنا نغلّق الأبواب والنوافذ ونتحادث بصوت خافت. وكان أزواجنا يشربون أكثر من المعتاد ويتهالكون على أسرّتهم في وقت مبكّر. وكانت كلابنا تنام تحت أقدامنا. ولم يطرق بابنا أحد.

بدأنا نغادر بيوتنا في حذر. كنّا في شهر ديسمبر، وبناتنا الكبريات قد ذهبن إلى المدن البعيدة ليعملن خادمات بيوت، وكانت الأيام تمضي في هدوء وسكون. والظلام يهبط باكرا. في الريف، ننهض كل يوم قبل

Twitter: @ketab_n

الفجر، ونذهب لتقليم أشجار الكروم. نقتلع الجزر من الأرض الباردة الندية. نقطع الكرَفْس، وباقات القنّبيط. نحفر في الأرض أتلاما عميقة لكي تحفظ ماء المطر. كانت الصقور تهيم عبر صفوف أشجار اللوز، وعند الغروب، نسمع ذئاب القيّوط تتنادى عبر الهضاب. كنا نجتمع كل ليلة في مطعم من مطاعم الحارة اليابانية لنتبادل آخر الأخبار. لعل هجوما وقع في الأراضي المجاورة. لقد طُوّقت إحدى القرى عند هبوط الليل. فُتّشت دستة من البيوت. قُطعت خطوط الهاتف. قُلبت المكاتب. وصودرت الوثائق. بعض الرجال حُذفوا من القوائم. «خذوا سَنونكم»، هذا فقط ما كان يقال لهم، ثم لا يُسمع عنهم خبر بعد ذلك أبدا.

كان يقال إن الرجال وضعوا في قطارات وأرسِلوا بعيدا، إلى الجبال، إلى أشد مناطق البلاد بردا. قيل إنهم يتعاملون مع العدوّ وسوف يطردونه في الأيام القريبة القادمة. قيل إنهم قُتلوا رميا بالرصاص. كثير منا كانوا ينظرون إلى الإشاعات بوصفها إشاعات، ومع ذلك فوجئنا بأننا كنا نروجها رغما عنا - بصورة هستيرية، دون تفكير، وضدّ إرادتنا. آخرون كانوا يرفضون في النهار الحديث عن المفقودين، وفي الليل يزورهم هؤلاء ليسكنوا منامهم. إحدانا -شيزوكو التي كانت تتولّى مطعم رانش كيرني وتُعدّ دائما كل شيء مسبّقا- جهزت لزوجها حقيبة صغيرة، كانت تتركها قرب المدخل. في جوفها فرشاة أسنان، ماعون الحلاقة، صابون، قالب شوكولاتة من نوعه المفضل، وملابس تبديل. كانت تعلم أنه سيكون محتاجا إلى كل ذلك لو ظهر اسمه في القائمة المقبلة. ورغم ذلك، كان ينتابها دائما خوف غير محدد، ولكنه ينهشها، من أن تكون غفلت عن شيء ما، أداة صغرى أساسية يمكن - في وقت مجهول من المستقبل، وأمام محكمة - أن تقيم الدليل

Twitter: @ketab_n

بشكل قاطع على براءة زوجها. وتظلّ تتساءل، ماذا يمكن أن تكون ؟ أهي التوراة؟ أم النظارة؟ أم صابون مختلف؟ له عطر أوفى؟ أكثر خشونة؟ **يقال إنّ راهب شينتو[1] تمّ إيقافه في الوادي لأنهم أمسكوا بحوزته شبابة أطفال من قصب البامبو.**

ماذا نعرف بالضبط عن هذه القائمة ؟ لقد تمّ تكوينها على عجل، صبيحة الهجوم. تمّ إعدادها قبل ذلك بسنة. قبل عشر سنوات. كانت تنقسم إلى ثلاثة أصناف: «معروف بخطورته» (صنف أ)، «خطورته محتملة» (صنف ب)، «موقفه مساند للعدو» (صنف ج). كان من المستحيل تقريبا ألاّ يكون اسمك ضمن القائمة. لا يوجد بها غير أناس من جنسنا. كان بالقائمة ألمان وإيطاليون، ولكن أسماءهم لا تظهر إلا في الأسفل. القائمة كتبت بخط أحمر غير قابل للمحو. القائمة مرقونة بالآلة الكاتبة على إضبارات. القائمة لا وجود لها. القائمة موجودة فقط في رأس مدير مصالح المخابرات العسكرية الذي يملك كما هو معروف ذاكرة معصومة من الخطأ. القائمة كانت من صنع خيالنا. القائمة تحوي خمسمائة اسم. القائمة تحوي أكثر من خمسة آلاف اسم. القائمة لا نهاية لها. عند كل إيقاف، يحذف من القائمة اسم ويضاف اسم آخر. أسماء جديدة تضاف كل يوم. كل أسبوع. كل ساعة.

بعض منا بدأن يتلقّين رسائل مجهولة تعلمهنّ بأن أزواجهنّ هم القادمون. **لو كنت مكانك لفكرت في ترك المدينة.** أخريات روين أن أزواجهن هدّدهم عملة فيليبينيون في الحقول. **جاؤوه مسلحين بسكاكين العمل.** هيتومي التي كانت حارسة ضيعة الأمراء منذ عشر سنوات، تعرضت للسلب بإشهار السلاح في وجهها في وضح النهار

(1) الشنتو: الديانة الأساسية في اليابان وهي من الديانات غير التوحيديّة.

Twitter: @ketab_n

حين كانت عائدة إلى المدينة. ميتسوكو خرجت ذات مساء قبل العشاء لتأتي بالبيض من القنّ فرأت غسيلها يحترق على الحبال. وكنّا نعلم أن تلك لم تكن سوى البداية.

بين ليلة وضحاها، صار جيراننا ينظرون إلينا بشكل مغاير. لعلّها تلك الصبية التي لم تعد تلوّح لنا بالتحية من شباك الضيعة، هناك على الطريق. أو ذلك الزبون العجوز الذي اختفى فجأة من مطعمنا، ومن متجرنا. أو معلمتنا، مسز تريمبل التي اختلت بنا ذات صباح كنا نمرر خلاله الخيشة في المطبخ، وهمست في أذننا: «أكنت تعرفين أن الحرب ستندلع؟» سيدات المجتمع ونواديهن صارت تقاطع مناضد غلالنا لأنها تخشى أن تكون بضاعتنا مسمومة بالزرنيخ. شركات التأمين توقفت عن تأميننا. البنوك جمّدت حساباتنا. باعة اللبن ما عادوا يسلّموننا حاجتنا. «إنّها أوامر الشركة»، شرح لنا أحدهم، والدمع في عينيه. الأطفال كانوا ينظرون إلينا، ثم يفرّون فرار الظباء المذعورة. عجائز صغيرات ماسكات بمَثْبناتهن يتوقفن على الرصيف عند رؤية أزواجنا ويصرخن: « ها هم هنا !» وعلى الرغم من أن أزواجنا حذّرونا من قبل - **إنهم خائفون** -، فإنّنا لم نكن مستعدات لهذا الوضع، لم نكن نتخيّل أن نجد أنفسنا فجأة في مكان العدو.

كل ذلك مردّه، بطبيعة الحال، إلى الحكايات التي ترويها الصحف. كانت تقول إن رجالنا مروا إلى التنفيذ بالآلاف بدقة صانع الساعات لحظة بدء الهجوم على الجزيرة. كانت تقول إننا سددنا الطرقات بشاحناتنا المعطلة وسياراتنا القديمة. وإننا كنا نبعث من حقولنا بإشارات إلى طائرات العدوّ. وإن عددا كبيرا من أطفالنا كانوا أعلنوا لرفاقهم بتفاخر، قبل أسبوع من الهجوم، أن «أمرا جللا» سوف يحدث. وأن هؤلاء الأطفال أنفسهم، حينما استجوبهم

Twitter: @ketab_n

أساتذتهم، رووا أن أولياءهم احتفلوا طيلة أيام بعد إعلان الهجوم، وهم يصرخون «بَنْزايْ»، وأنّ كلّ من ظهرت أسماؤهم على القائمة، كانوا مهيئين، في حال الهجوم على القارة، للانضمام إلى العدو. وأن عمّالنا الفلاحيين كانوا مشاة ضمن جيش خفيّ ضخم، لديهم آلاف مؤلّفة من الأسلحة المخفية في مخازن خضرهم. وأننا، نحن الخدم، أعوان مخابرات مندسّون. وأننا، نحن البستانيين، كنا نخفي أجهزة إرسال ذات ذبذبات قصيرة في أنابيب السقي، وأننا، في الساعة الصفر، بالتوقيت الأطلسي، سنمر إلى العمليات. وسوف تتفجر سدود. وتحترق آبار بترول. وتُدمّر طرقات. وتُسدّ أنفاق. وتُسمَّم خزّانات. وما الذي يمنع أحدنا من الذهاب إلى سوق مزدحمة بحزام من الديناميت؟ **لا شيء.**

كنا، كل مساء عند الغروب، نحرق أشياءنا: كشوف بنكية قديمة، يوميات حميمة، هيكل العائلة البوذي، عصيّات من الخشب، فوانيس من الورق، صور أقربائنا، وهم في هيئة جدّية في القرية، بألبسة القرويين الغريبة. **نظرتُ إلى وجه أخي وهو يتحوّل إلى رماد ويصَاعد إلى السماء.** أضرمنا النار في كيمونو أعراسنا الحريرية البيضاء، في الهواء الطلق، في بستاننا، بين الأتلام التي تتوسط أشجار التفاح. سكبنا البنزين على دمى أعيادنا في حاويات نفايات معدنية في عمق أزقة الحي الياباني. تخلصنا من كل ما يمكن أن يوحي بأن لأزواجنا علاقة مع العدوّ. رسائل أخواتنا. **ابن الجار ذهب، شرقا، مع زوجة بائع المطريات.** رسائل آبائنا. **سكة الحديد صارت تعمل بالكهرباء، لذلك، من الآن، حينما تمر تحت نفق، فلن يكون وجهك ملوّثا بسواد الدخان.** رسائل أمهاتنا المكتوبة يوم رحيلنا. **ما زلت ألمح أثر خطاك على الوحل قرب الوادي.** وتساءلنا لماذا حرصنا طويلا على المحافظة

Twitter: @ketab_n

على نمط الحياة الأجنبية تلك. لقد ولَدنا في نفوسهم الكراهية.

كانت الليالي تتمدد، وتزداد بردا، وفي كل يوم تجيئنا أخبار عن رجال آخرين وقع اختطافهم. بائع خضر في الجنوب. مدرّب جودو. مستورد حرير. موظف شركة ملاحة، في المدينة، وهو عائد إلى مكتبه بعد غداء متأخر. أوقفوه عند مفترق طرق حين كان ينتظر الضوء الأخضر للعبور. منتج بصل في الدلتا، اتُّهم بالتآمر لتفجير السدود. عثروا على برميل بارود في هُرْيِه. وكيل سفريات. مدرّس لغات. عامل فلاحي كان يزرع الخسّ على الساحل اتُّهم باستعمال مصباحه اليدوي لإرسال إشارات إلى سفن العدو في عرض البحر.

زوج شيومي صار ينام بثيابه، ليكون جاهزا للّيلة المحتومة. لأن أكثر ما يثير خجله، مثلما كان يقول، هو أن يتم إيقافه في بيجامة (زوج أيكو أخذوه في بيجامة). زوج أساكو كان مهووسا بحذائه. كان يمسحه كل ليلة حتى يلمع ثم يضعه تحت السرير. زوج يوريكو، التاجر المسافر الذي كان يبيع الأسمدة، وكان قليل الوفاء على مر السنين، لم يعد يجد النوم دون أن تكون زوجته بجانبه. «فات الأوان، كانت تقول، ولكن ما الحيلة؟ عندما نتزوج، فعلى مدى الحياة.» زوج هاتسومي كان يتضرّع بتمتمات موجزة يرفعها إلى بوذا قبل أن يخلد إلى النوم. في بعض الأيام كان يتضرع حتى ليسوع، من يدري، لعله هو الرب الحقيقي الوحيد؟ زوج ماريكا كان يعاني من الكوابيس. الوقت ظلام والشوارع اضمحلت. منسوب البحر كان يرتفع. السماء تنهار. كان سجين إحدى الجزر. تائها في الصحراء. أضاع حافظة نقوده وتأخر عن موعد القطار. أبصر زوجته وسط جمع من الناس، ناداها، فلم تلتفت. الشيء الوحيد الذي نالني من هذا الرجل هو العذاب.

حملت بدايات الأمطار العنيفة آخر أوراق الشجر وسرعان ما

Twitter: @ketab_n

فقدت النهارات دفئها. كانت الظلال تنمو ببطء، وكان صغار أبنائنا يذهبون إلى المدرسة كلّ صباح ويعودون بجملة من الطرائف. صبية بلعت بينّي خلال فترة الاستراحة وكادت تموت. مستر بارنيت يحاول إرسال شاربه من جديد. مسز تراشتنبرغ كانت سيئة المزاج. بسبب العادة الشهرية. كنا نقضي أياما طويلة في البساتين رفقة أبنائنا الكبار وأزواجنا نقطع الزّغف[1]، ونقلّم الأغصان، ونبتر الأجزاء الميتة التي لم تعد تحمل الثمار صيفا أو خريفا. نطبخ الأكل ونرتب البيوت في الضواحي لدى الأسر التي اعتدنا العمل عندها منذ سنين. نقوم بما اعتدنا أن نقوم به دائما، ولكن لم يعد أي شيء كما كان. تقول أوناتسو «صار أي ضجيج يرعبني، حين يُطرق الباب، أو يرنّ الهاتف، أو ينبح كلب. صرت أرهف السمع لخطى الناس.» وكلّما أقبلت سيارة مجهولة إلى الجوار، يخفق قلبها حد الانقطاع، لأنها كانت واثقة من أنّ ساعة زوجها قد أزفت. أحيانا، في أشد اللحظات اضطرابا، كانت تتصور أن الأمور حدثت بالفعل، وأن زوجها لم يعد هنا، وأن عليها أن تقبل بهذه الحقيقة، فينتابها بعض الارتياح، فلا شيء يُضني أكثر من الانتظار.

خلال ثلاثة أيام هبّت ريح باردة قادمة من الجبال دون توقف. تعالت فوق الحقول وأغصان الشجر العارية سُحبٌ من الغبار كانت تحاول هتك السماء الرمادية الخاوية. شواهد قبور في مدافننا قُوّضت. أبواب الأهراء تنفتح من تلقاء نفسها. أسقف الزنك تقرقع. كلابنا المفضلة تهرب. غسّال صيني عُثر عليه على حافة مجرى مائي فاقد الوعي، مضرّجا بدمائه، متروكا في عداد الأموات. ظنّوه واحدا منّا. اصطبل أُضرمت فيه النار في وادٍ بعيد، وظلت الروائح الكريهة المنبعثة من الهياكل العظمية للحيوانات الميتة ترين في الفضاء أيّاما طويلة.

(1) أطرافُ الشجر والنباتِ الضعيفةُ.

Twitter: @ketab_n

في المساء، نجلس في مطابخنا رفقة أزواجنا المنكبّين على جريدة اليوم، يتفحّصون كلّ سطر، وكلّ كلمة، بحثا عن خبر يوضّح مصيرنا. نناقش آخر الشائعات. سمعتُ أنهم سيأخذوننا إلى معسكرات لكي ننتج ما تحتاج إليه الجيوش. نفتح الراديو لكي نسمع أخبار الجبهة. لم تكن جيدة بطبيعة الحال. العدو أغرق ستّا من غوّاصاتنا. لمحنا طائرات تقوم بعمليات اختراق تجريبية في مجالنا الجوي. غواصات العدو تزداد اقترابا من سواحلنا. العدو يخطط لهجوم متزامن على الساحل وعلى اليابسة، وكل مواطنينا مدعوّون إلى التيقّظ ليخبروا السلط بوجود أفراد من الطابور الخامس ربما اندسوا بيننا. لأن أيًّا كان، أردف المذيع للتذكير، يمكن أن يكون جاسوسا. قهرمانكم، بستانيُّكم، زهّاركم، خادمكم.

واحد من خيرة فلاّحينا في الثمار الحمراء سُحب من سريره في الثالثة صباحا، واقتيد تحت حراسة مشددة. كان أوّل واحد من معارفنا يُقتاد بتلك الطريقة. لا يلاحقون غير أصحاب الضياع الأثرياء، كان الناس يقولون. في مساء الغد، جاؤوا رجلا يعمل مزارعا بسبرينغ رانش ويعيش في الجوار فأخذوه في زي العمل الأزرق الملطخ بالأوحال حينما كان يجول بكلبه قرب الخزان، فاستنطقوه ثلاثة أيام وثلاث ليال في حجرة ساطعة الإنارة، خالية من النوافذ، ثم قالوا له يمكنك أن تعود إلى بيتك. ولكن عندما أقبلت زوجته إلى المخفر لتعود به، لم يعد يعرف من هي. لقد ظنّني محتالا يريد إنطاقه. ومن الغد أخبرتنا ثلاث نساء نعرفهنّ من القرية المجاورة بأنّ أزواجهنّ على القائمة. «أركبوه سيارة، قالت إحداهن، ثم اختفى.» وبعد يومين، صفّدوا أحد منافسينا -المنتج الوحيد في الوادي الذي يملك عنبا يداني تقريبا عنبنا من حيث نكهته وطعمه- صفّدوه إلى كرسيّ

Twitter: @ketab_n

في مطبخه وبقي كذلك طوال أربع ساعات قام خلالها ثلاثة رجال بتفتيش بيته، وبعد ذلك فكّوا وثاقه. يقول الناس إنّ زوجته قدّمت لأولئك الرجال القهوة والتورتة. وكنا، نحن النساء، نود أن نعرف: أي نوع من التورتة؟ بالفراولة؟ بالروند؟ بالليمون المرنّغ؟ وكيف كان الرجال يشربون قهوتهم؟ بالسكر أم من دونه؟

في بعض الليالي، كان رجالنا يقضون الساعات ساهمين وهم يسترجعون ماضيهم بحثًا عن أيّ جزئية قد تؤكّد أن أسماءهم هم أيضا يمكن أن تكون ضمن القائمة. لا شك أنهم قالوا كلمةً أو فعلوا شيئا ما، ارتكبوا خطأ ما، لا بدّ أن يكونوا متهمّين بشيء ما، ربما بجريمة غامضة ليس لهم وعي بها؟ ولكن ما هي؟ كانوا يسألوننا. هل هي تلك الكأس التي رفعناها على نخب وطننا خلال تلك النزهة الريفية صيفَ العام الماضي؟ أو تعليق محتمل على خطاب الرئيس الأخير؟ لقد وصَفَنا جميعا بقُطّاع الطرق. أو لعلهم قدّموا مساعدات إنسانية لمن لا يستحق -أي واحد تجمعه بالعدو علاقات سرية يجهلونها؟ هل هذا ممكن؟ أو لعلّ شخصا -يكرههم دون ريب- قد لفّق لهم ما لفّق زورا وبهتانًا؟ واحد من حرفائنا في **كابيتول لوندري**، ربما، كنا قابلناه بجفاء بلا سبب؟ (هل كان الذنب كلّه إذن ذنبنا؟) أو لعل جارا مستاءً نفد صبره بسبب كلبنا الذي جاوز الحدّ في التفوّط وسط أزهاره؟ هل كان عليهم أن يُظهروا ودّا أكبر؟ كانوا يتساءلون. أو لعل ذنبهم مُسجّل على وجوههم، على مرأى الناس أجمعين؟ هل هي سحنتهم التي تجعلهم، في الواقع، مُذنبين؟ لأنها لا تروق الجميع؟ أو لأنّها -وهذا الأدهى- تجرح أحاسيس البعض؟

في يناير، أصدروا لنا أمرا بتسجيل أسمائنا لدى السلط وتسليم الشرطة المحلية كلّ البضائع المهرّبة: أسلحة، قنابل، متفجرات، آلات

Twitter: @ketab_n

تصوير، مناظير، سكاكين أطول من ستة عشر سنتمترا، والإعلان عن امتلاك أدوات من نوع كشافات، شماريخ مضيئة، وكلّ ما يمكن أن يخدم العدو في حالة الهجوم. ثمّ جاء حظر التنقل - لا يحق لأي فرد من أفراد عائلاتنا الابتعاد عن محل سكناه أكثر من ثمانية كيلومترات-، وحظر التجول بداية من الساعة الثامنة مساء، وعلى الرغم من أن أغلبنا ليس من طيور الليل، فقد تأسّفنا، لأوّل مرة، لأنّنا لن نستطيع التجوّل عند منتصف الليل. **مرّة واحدة على الأقل، مع زوجي، بين أشجار اللوز، لأرى أثر ذلك في نفسي.** وعندما كنا نرى عبر النافذة جيراننا وأصدقاءنا يفرغون أهراءنا في الثانية صباحا، لم نكن نجرؤ أن نضع قدما خارج البيت خوفا من أن يشي بنا أحدهم إلى البوليس. فمجرد مكالمة واحدة تكفي لكي يُدرج اسمُنا في القائمة، ونحن نعرف ذلك جيّدا. وعندما صار أبناؤنا يقضون الليل في المدينة، مساء السبت، لا نسألهم أين كانوا إذا عادوا متأخّرين في صبيحة اليوم الموالي، ولا كم كلّفهم ذلك، ولا عن سبب حملهم شارات **أنا صيني** معلّقة في ياقة أقمصتهم. «فليتمتعوا ما دام ذلك ممكنا.» كان أزواجنا يقولون لنا. لذلك كنا نُحيّي أطفالنا تحيةَ الصباح بلطف ونحن في المطبخ -**بيض أم قهوة؟**- وننصرف إلى شؤوننا.

يقول أزواجنا «إذا ذهبت»... نجيبهم بـ: «نعم.» فيُضيفون: «لا تنسي أن تنفحي بائع المثلجات بقشيشا»؛ ثمّ: «عليك أن تُحيّي دائما كلّ الزبائن بأسمائهم حين يدخلون.» شرحوا لنا أين نجد مضامين ولادة أطفالنا، ومتى نطلب من بيتٍ، في المستودع، أن يُغيّر عجلة الشاحنة. «إن احتجتِ إلى مال بيعي الجرّار.» «بيعي المصرى.» «بيعي بضاعة المغازة.» كانوا يذكّروننا بعدم التراخي في قوامنا -**الكتفان إلى الخلف**- والحرص على أن يؤدي الأطفال واجباتهم اليومية كما ينبغي.

Twitter: @ketab_n

كانوا يقولون: «ابقي على اتصال بالمستر هاور من شركة منتجي الثمار الحمراء. فمعرفته مفيدة، ويمكن أن يساعدك.» يقولون: «لا تصدقي ما سوف تسمعينه عني.» ثم: «لا تثقي في أحد.» ثم: «لا تقولي شيئا للجيران.» ثم: «لا تنزعجي من الفئران في السقف. سأتولّى أمرها حينما أعود.» كانوا يذكّروننا بضرورة حمل بطاقة الهويّة الأجنبية كلّما غادرنا البيت، وتجنّب الحديث عن الحرب. وإذا صادف أن سألنا أحدهم عن رأينا، ينبغي أن ندين بشدة الهجوم على بلادنا في نبرة لا تترك أي مجال للشك. «لا تعتذري» كانوا يقولون لنا. «لا تتكلمي إلاّ بالإنكليزية.» «كُفي عن حركة الانحناء».

في الصحف والراديو، بدأ الحديث عن عمليات تهجير ضخمة. **جلسات متوقعة حول الهجرة والدفاع القومي. الوالي يحضّ الرئيس على ترحيل الأجانب الأعداء من الساحل. فَلْيُطردوا إلى بلدانهم!** كل شيء يسير بكيفية متدرّجة، فيما يقال، على مدى عدة أسابيع، إن لم تكن أشهرا. لن يطرد أحد منا بعنف. سوف يرسلوننا بعيدا، في مكان نختاره بأنفسنا، في أعماق البلاد الداخلية حيث لا يمكننا أن نؤذي أحدا. سوف يقع التحفّظ علينا في مركز حجز حتى نهاية المعارك. لن يرسلوا إليه سوى الذين يسكنون في منطقة تصل إلى مائة وخمسين كيلومترا عن السواحل. لن يرسلوا سوى الذين يوجدون في القائمة. لن يرسلوا سوى الذين لا يحملون الجنسية الأمريكية. أولادنا الذين صاروا كهولا قد يبقون هنا لكي يحرسوا متاجرَنا وضِيعاتنا. متاجرُنا وضيعاتُنا قد تصادر وتباع في المزاد العلني. **الأفضل، أن نصفّي كل شيء الآن.** قد يقع فصلنا عن صغارنا. قد يقع تعقيمنا وترحيلنا في أقرب وقت ممكن.

كنا نحاول التمسك بأفكار إيجابية. لو ننتهي من كيّ الملابس قبل

Twitter: @ketab_n

منتصف الليل فسوف يسحب اسم زوجنا من القائمة. لو نشتري قروض حرب بما قدره عشرة دولارات فسوف يكون أطفالنا في منجى. لو نردّد أغنية لفّ القنّب[1] حتى النهاية دونما خطأ فلن تكون ثمة قائمة ولا غسيل ولا قروض حرب بل ولا حرب أصلا. ورغم ذلك لطالما كان ينتابنا في آخر النهار نوع من الضيق وكأننا نسينا أن نفعل شيئا ما. هل نسينا إغلاق سُكور الهَويس؟ هل أطفأنا المدفأة جيّدا؟ أطعمنا الدجاج؟ غذّينا أطفالنا؟ هل قرعنا ثلاث مرات خشب السرير؟

في شهر فبراير بدأت الأيام تلطف والخشخاش يتفتح في شكل بريق برتقالي ساطع وسط الهضاب. وكانت قوانا العاملة تتناقص باطراد. زوج مينيكو لم يعد هنا. زوج تاكيكو لم يعد هنا. ولا زوج ميتسوي. عثرنا على رصاصة خلف الكوخ الخشبي. زوج أوميو قُبض عليه في الطريق لأن حظر التجول كان قد بدأ منذ خمس دقائق. زوج هانايو تمّ إيقافه وهو على مائدته لأسباب غامضة. «أخطر ما ارتكبه في حياته تكبّدُه مُخالفة بسبب عربته التي لم تكن مركونة كما ينبغي» قالت. وزوج شيماكو الذي كان يقود شاحنة تابعة لشركة يونايتد فروت، زوجها الذي لم يسمع أحد كلمة واحدة نطق بها، تم إيقافه في جناح المنتجات اللبنية في البقالة المحلية، لأنه كان رجل مخابرات لدى القيادة العليا المعادية. «كنت أعرف ذلك منذ البداية»، قال أحدهم. ردّ عليه شخص آخر: «في المرة القادمة ربما تكون أنت.»

الأدهى والأمرّ، تقول شيزوكو، هو عدم معرفة المكان الذي يوجد فيه. في الليلة الأولى التي عقبت إيقاف زوجها، استفاقت مرتعبة، عاجزة عن تذكر سبب بقائها وحيدة. مدّت يدها، أحسّت السرير فارغا حذوها، ففكرت: **أنا في سِنة من النوم، وما هذا سوى كابوس،**

---

(1) The Hemp Winding Song

Twitter: @ketab_n

ولكنه لم يكن كذلك. كان ذلك هو الواقع. نهضت وهامت في البيت تنادي زوجها، وتبحث عنه في الخزائن الحائطية وتحت الأسرّة. من يدري. ولما أبصرت حقيبته الموضوعة على الدوام جنب باب الدخول، أخذت منها علبة الشوكولاتة وجعلت تأكلها، ببطء. «لقد نسيها»، قالت. يوميكو رأت زوجها مرتين في المنام وأكّد لها أنه بخير. أكبر قلقها كان على الكلبة، فيما تقول. «كانت تظل ساعات وهي ممدّدة على خُفّيه، وتدمدم كلما رأتني أجلس على كرسيّه.» فوزاكو اعترفت لنا بأنها كلما علمت بإيقاف زوج امرأة أخرى، أحسّت في قرارة نفسها بالارتياح. «أنتن تعرفن: أن يقع ذلك عليها هي خير من أن يقع عليّ أنا.» ثم تخجل من نفسها بطبيعة الحال. كانوكو اعترفت بأنها ليست مشتاقة إليه بالمرة. «كان يشغّلني مثل رجل ولا ينفك يحبلني.» حسبما تعلم، تقول كيوكو، لا يوجد اسم زوجها على القائمة. «هو رجل بيوت مكيفة. يحبّ الأزهار. وليس في ذلك أي تخريب.» تردّ نوبوكو: «أجل، ولكن من يدري.» أمّا نحن الأخريات، فقد كنّا نكتم أنفاسنا في انتظار ما سوف يحدث.

صرنا أقرب إلى أزواجنا من أي وقت مضى. نقدّم لهم أحسن قطع اللحم عند العشاء. ونتظاهر بأننا لا نرى الفتات الذي يتركونه. ننظّف آثار الوحل على الأرض دون تعليق. وعند هبوط الليل، لا نصدّهم في السرير. وعندما يصرخون في وجوهنا لأننا لم نعدّ لهم الحمّام كما يريدون، أو ينفد صبرهم فيقذفون في أسماعنا بما نكره -**بعد عشرين سنة في أمريكا، كل ما تعلمت نطقه هو «هارّو»؟**- نلزم الصمت ونحاول ألاّ نغضب، فما الذي يحدث لو صحونا من الغد واكتشفنا أنهم ما عادوا هنا؟ كيف سنطعم أطفالنا عندئذ؟ وكيف سنسدّد الإيجار؟ **ساتوكو اضطرّت إلى بيع كلّ أثاثها.** من سيذهب لإشعال نيران

Twitter: @ketab_n

الحديقة في عزّ اللّيل من أجل حماية الأشجار المثمرة من الصقيع الربيعي الكاسح. من سيصلح قضيب قطر الجرار؟ من سيخلط السماد؟ من سيشحذ سكّة المحراث؟ من سيطيّب خاطرنا لو خاطبَنا شخص في السوق بكلام بذيء أو عيَّرنا في الشارع بنعوت لا تسرّ؟ من سيمسكنا من ذراعنا وهو يخضنا حين نردس الأرض برجلنا ونقول إننا سنفارقه وإننا سنركب أول سفينة تعود بنا إلى بلدنا؟ **السبب الوحيد الذي تزوجتَ من أجله هو أن تجد من يساعدك في الضيعة.**

كنا نزداد شكّا في وجود مخبرين بيننا. زوج تيروكو، فيما يهمس الناس، بلّغ عن رئيس عمّال مصنع التفاح المجفّف لأنه كان على علاقة بزوجته. زوج فومينو اتّهمه بالتحيز للعدو شريك تجاري سابق كان في حاجة ملحة إلى المال. (كان يقال إن المخبرين يتقاضون خمسة وعشرين دولارا عن الرجل الواحد.) زوج كونيكو اتّهم بكونه عضوا في مجمع التنّين الأسود، من قبل كونيكو نفسها. كان يتأهّب للانفصال عني والالتحاق بعشيقته. وزوج روريكو؟ كوري فيما يزعم الجيران. يعمل تحت هوية مزورة. كان يتقاضى أجرا من الحكومة ليكون عينها على المعبد البوذي المحلي. رأيته يسجّل أرقام لوحات السيارات في المرآب. وبعد أيّام، عُثر عليه في حفرة على حافة الطريق مصابا بضرب عنيف، ومن الغد لم يظفر أحدٌ بأثر له أو لعائلته. كان باب بيتهم مشرعا، وقططهم قد أخذت وجبتها، والماء لا يزال يغلي على السخّان. لقد رحلوا جميعا. هذا كلّ ما في الأمر. رحلوا ولم تبق منهم سوى نتف من أخبارهم التي ظلّت تتردّد علينا لبضعة أيام. **نزلوا إلى الجنوب، قرب الحدود. هربوا إلى الولاية المجاورة. يعيشون في بيت مرفّه بالمدينة، ولهم سيارة جديدة رغم أنهم لا يملكون في الظاهر أي سبب من أسباب العيش.**

Twitter: @ketab_n

قدم الربيع. كانت أشجار اللوز في البساتين تفقد آخر بتلاتها وأشجار الكرز تتفتح، والشمس تشعّ على أغصان البرتقال، وعصافير الدوري ترتجف في العشب. وفي كل يوم يختفي واحد من رجالنا. كنا نحاول أن نشغل أنفسنا ونقنع بأبسط الملذات. صحفة أرز ساخن. فاتورة مدفوعة في الوقت والساعة. طفل نائم، في الحفظ والأمان. كنا نبكر بالقيام كل صباح، نرتدي ألبسة العمل ونذهب للحراثة والغراسة والعزق. كنا نقتلع الأعشاب الطفيلية بين كرومنا. نسقي قرعنا وبَسلّتنا. وفي كلّ جُمعة من كلّ أسبوع، نُنهض خيولنا ونذهب إلى القرية للتبضع، ولكننا لا نتوقف لنتبادل التحيّات حينما نلتقي في الطريق. **سوف يظنون أننا نتبادل معلومات سرية.** لم يكن أحدُنا يزرو الآخر في الحي الياباني مساءً بسبب حظر التجوّل. ولم نكن نتأخّر بعد القدّاس. **الآن، صرت أسأل نفسي كلما توجهت إلى شخص: «هل يخونني؟»** صرنا في حضور أطفالنا ننتبه إلى ما نقول. **فالجاسوس الذي وشى بزوج شيكو لم يكن سوى ابنه ذي الثمانية أعوام.** وصارت بعض النسوة منّا يتساءلن عن أزواجهن: **أتكون لديه هوية سرية لا أعلمها؟**

وسرعان ما بلغتنا إشاعات تزعم أنّ جاليات كاملة وقع ترحيلها. أكثر من تسعين في المائة من الرجال تمّ إيقافهم في قرية منتجي السّلَطة في وادٍ بالشمال. ما يزيد عن مائة من رجالنا أوقِفوا في محيط الدفاع حول ميادين الطيران. وتمّ تجميع كلّ من له أصول يابانية في يوم وليلة، على الساحل الأيسر، في قرية صيادين صغيرة ذات أكواخ بائسة، دون سابق إنذار، بعد إصدار مذكّرة بالقبض الجماعي. صودرت يوميات سفنهم، وُضعت مراكبهم تحت المراقبة، مُزّقت شباكهم وألقيت في البحر. لأن الصيادين، فيما يقال، لم يكونوا كذلك، بل هم في الحقيقة عملاء سرّيون في خدمة البحرية الإمبريالية المعادية. عُشر

Twitter: @ketab_n

على أزيائهم مصرورة في ورق مدهون بالزيت داخل صناديق طُعمهم.

بعضنا بدأن يشترين أكياس نوم وحقائب للأطفال، تحسّبا لما قد يصيبنا بدورنا. أخريات واصلن العمل محاولات المحافظة على هدوئهن. قليل من النشاء على هذه الياقة وتصبح جيدة، أليس كذلك؟ ما سوف يأتي سيأتي، كنّا نقول، لا داعي لمنافسة الآلهة. إحدانا كفّت عن الكلام. أخرى خرجت باكرا لتورد الخيول فشنقت نفسها في الإصطبل. فوبوكي هي الأخرى كانت نهبا لمثل تلك الوساوس حتى أنها تنفست الصعداء بمجرّد أن جاء أمر الترحيل، لأن الترقب انتهى. تايكو تأمّلت الإعلان مذهولة وهزت رأسها ببطء. وتساءلت: «وماذا عن فراولتنا؟ إنّها ستكون صالحة للقطاف بعد ثلاثة أسابيع.» ماشيكو قررت ألاّ تذهب، ليس في الأمر تعقيد. «لقد جدّدنا منذ وقت قريب عقد إيجار المطعم.» وعلّقت أوميكو بأن لا خيار لنا، ولا بد أن نفعل ما يقولون لنا. «إنها أوامر الرئيس.» ومن نحن حتى نعترض على أوامر الرئيس؟ «كيف هي طبيعة الأرض هناك؟» أراد زوج تاكيكو أن يعرف. «بكم يوم مشمس سوف ننعم؟ وبكم يوم مطير؟» فيما اكتفت كيكو بشبك يديها ونكس بصرها نحو قدميها، قبل أن تُعلّق بصوت خفيض: «انتهى كل شيء». و أردفت هارويو، على الأقل سنذهب جميعا معًا. فعلّقت هيساكو: «نعم، ولكن ماذا فعلنا ؟» فيما وضعت إيسينو وجهها بين يديها لتبكي. «كان عليّ أن أطلّق منذ أعوام وأعود بأطفالي إلى بيت أمي في اليابان.»

أعلمونا في البداية أنهم سيرسلوننا إلى الجبال، وكان لزاما أن نتدثّر بملابس ثقيلة، لأن الطقس سيكون شديد البرد. لذلك اشترينا سراويل داخلية طويلة من الصوف وأول معاطفنا الشتوية السميكة. ثم بلغنا أننا سنذهب إلى الصحراء، حيث الثعابين السوداء السامة

Twitter: @ketab_n

وحيث البعوض في حجم صغار العصافير. لا وجود للأطبّاء هناك، حسب ما يُقال، والمكان يعجّ باللصوص. عندئذ اشترينا أقفالا، وقناني فيتامينات لأطفالنا، وعلب ضمّادات، وعصيات كيّ، ولزقات، وزيت قندس، وقليلا من اليود، وحبات أسبرين، وشاش جراحة. ولكنّنا علمنا أن لنا الحق في حقيبة فقط للشخص الواحد، فخطنا جوارب صغيرة من القماش يحملها أطفالنا على ظهورهم، وأسماؤهم مطرّزة عليها. وضعنا بداخلها أقلاما ودفاتر وفُرَش أسنان وصدريات من الصوف وأكياسا من ورق الكرافت مملوءة بالأرز الذي تركناه يجف تحت الشمس في أطباق من الصفيح، تحسّبا لأيّ طارئ في صورة ما إذا افترقنا. كنّا نقول لهم إنّ «كلّ هذا مؤقّت». وإنّهم لا ينبغي أن ينزعجوا. ونحدّثهم عمّا سنفعله عندما نعود إلى بيتنا. سنتناول العشاء كل مساء أمام الراديو. سنصحبهم إلى السينما. سنأخذهم إلى السيرك حينما يقدَم لكي يشاهدوا التوأم السيامي والمرأة ذات أصغر رأس في العالم. لا تتجاوز حبة برقوق!

على الكروم أينعت براعم خضراء شاحبة، وعبر الوادي أزهرت أشجار الخوخ تحت سماء زرقاء صافية. حشد من الخردل البري الأصفر الفاقع تفتّح عبر الشعاب. نزلت القبّرات من الهضاب. وهجر كبار أبنائنا وبناتنا أعمالهم ودروسهم الواحد تلو الآخر في القرى والمدن البعيدة وبدؤوا يعودون إلى البيت. كانوا يساعدوننا على إيجاد من يشتري مغاسلنا في الحي الياباني، وكلاء جدد لمطاعمنا. يساعدوننا على وضع معلّقات في محلاّتنا. اشتروا الآن! اقتصدوا! كلّ شيء ينبغي أن يزول! في الريف كانوا يلبسون ملابس العمل الزرقاء ويساعدوننا على إعداد آخر موسم من مواسم الحصاد، لأننا تلقينا أمرا بمواصلة تعهّد محاصيلنا حتّى النهاية. كانت تلك مساهمتنا في

Twitter: @ketab_n

دعم المجهود الحربي، كما قيل لنا. فرصتنا لإثبات وفائنا. بتوفير الغلال والخضر الطازجة للجنود في الجبهة.

كان تجّار الخردوات يقودون عرباتهم ببطء في الأنهج الضيّقة لأحيائنا، ويقترحون علينا شراء بضاعتنا. عشرة دولارات ثمن مدفأة جديدة اقتنيناها بمائتين العام الماضي. خمسة دولارات لثلاجة. عشرة سنتات لمصباح. بعض الجيران ممّن لم نبادلهم الحديث إطلاقا كانوا يأتون إلى الحقول ليسألونا هل ثمة أشياء نريد التخلص منها. هذه الحرّاثة الآلية مثلا؟ هذا المشط[1]؟ هذا البرذَوْن؟ هذا المحراث؟ شجرة ورد الملكة آن البارزة أمام الدار، تلك التي كانوا يتملّونها بإعجاب منذ سنين؟ مجهولون كانوا يطرقون بابنا. «هل لديكم كلب؟» سأل أحدهم. ابنه، فيما يقول، يريد كليبا بأي ثمن، فيما أخبرنا رجل آخر بأنه يعيش وحيدا في مقطورة قرب حظيرة بناء بحرية وأنه سيكون سعيدا لو ربّى قطا. «أحس بالوحدة، لو تدرون.» أحيانا كنّا نتعجّل البيع، بأيّ مبلغ، وأحيانا أخرى كنا نعطي مزهرياتنا وأباريقنا المفضلة ونحاول ألاّ نشغل بالنا بها، لأن أمهاتنا كنّ يكرّرن على مسامعنا دائما: **لا ينبغي الارتباط كثيرا بأشياء هذه الدنيا.**

ولما كان موعد رحيلنا يقترب، سدّدنا فواتيرنا الأخيرة لدائنينا وشكرنا زبائننا الأوفياء الذين ظلّوا إلى جانبنا حتى النهاية. هنرييتّا، زوجة «الشريف» بوركهارد التي كانت تشتري من بقالتنا خمس علب من الفراولة كل جمعة وتنفجنا كل مرة بقشيشا بخمسة وخمسين سنتا. رجاء، **اشتري لكِ شيئا جميلا**. أرملة توماس دافّي المتقاعدة التي تتناول غداءها في حانتنا كل يوم عند منتصف النهار ونصف، وتطلب طبق دجاج بالأرز المقلي. رئيسة نادي مساعدة السيدات،

(1) أداة مسننة تُجرّ فوق الأرض المحروثة لتنقيب المدر وطَمر الحبوب المزروعة.

Twitter: @ketab_n

روزاليند صاندرس التي كانت ترفض غسل ثيابها في محلّ غير محلّنا. **الصينيون لا يتقنون ذلك.** كنّا نواصل خدمة الأرض كالعادة، ولكن الأمور لم تكن تبدو واقعية. كنّا نصنع الصناديق لرصف غلال لن نقطفها. نقرط دوالي لن تنضج عناقيدها قبل رحيلنا. نحرث الأرض لغرس شتل طماطم سوف تشهد نضوجها بعد مدة خلال الصيف، حين لا نكون هنا. صارت النهارات طويلة وفاترة. والليالي باردة. والمخازن مزدحمة. أسعار الفاصولياء الخضراء تتزايد يوما بعد يوم. الهليون يبلغ ذروة الأسعار مُحطّما أرقاما قياسية. شجيرات الفراولة مكسوة بعنبيات خضراء، وشجر الزّلّيقة سوف ينوء عمّا قريب بثماره. أسبوع آخر ونكسب ثروة. ورغم أننا كنا نعرف أن رحيلنا وشيك، فقد كنا لا نفتأ نمنّي النفس بأن شيئا سوف يحدث، وأن بإمكاننا البقاء.

ربما تتدخّل الكنيسة لصالحنا، أو زوجة الرئيس. بل لعلّ ما حصل كان نتيجة سوء تفاهم فظيع، وقد تكون النية تقتضي في الواقع ترحيل أناس آخرين. «الألمان» زعم أحدهم. «أو الطليان» ادّعى غيرُه. وقال ثالث: «والصينيون؟» فيما لزم الآخرون الصمت ومضوا يستعدون على قدر جهدهم للرحيل. كنا نكتب كلمات لأساتذة أبنائنا لنطلب منهم في لغة إنكليزية ركيكة أن يغفروا لهم تغيبهم المقبل. نسجّل تعليمات لسكان بيوتنا القادمين نشرح لهم فيها كيفية تنظيف مجرى المدخنة والتصرّف مع رشح الماء في السقف. **ضعوا سطلا.** تركنا زهر اللوتس يتفتح من أجل بوذا قبالة معابدنا. أدّينا آخر زيارة إلى مقابرنا وسكبنا الماء على شواهد قبور من رحلت أرواحهم عن هذا العالم. ابن يوشيي الأصغر، تيتسو الذي بَقَر بطنَه ثورٌ هائج. ابنة بائع الشاي في يوكوهاما التي صرنا نجد صعوبة في تذكّر اسمها. **ماتت بسبب الإنفلونزا الإسبانية ولم تمض خمسة أيام على وصولها إلى أمريكا.**

Twitter: @ketab_n

مسحنا أرض كرومنا مرّة أخيرة رفقة أزواجنا الذين لم يقاوموا ضرورة قلع آخر عشبة طفيلية. رفعنا أغصان شجر اللوز التي دانت أكثر من اللازم، لقطنا حفنات من التربة السوداء المحروثة حديثا. أجرينا آخر عميات غسل في مغاسلنا. غلّقنا على المؤونة بقّالاتنا. كنسنا البلاط. حزّمنا حقائبنا. جمّعنا أطفالنا، ومن كلّ القرى، من كل الوديان، من كل المدن المطلة على الساحل، بدأنا الرحيل.

كانت أوراق الشجر لا تزال تتمايل في مهبّ الريح. والوديان تجري. والحشرات تطنّ في العشب كالعادة. والغربان تنعب. والسماء لا تنهار. والرئيس لا يغيّر رأيه. دجاجة ميتسوكو المفضّلة قاقت مرة وباضت بيضة بنية دافئة. برقوقة خضراء وقعت من شجرتها قبل الأوان. كلابنا تجري خلفنا، وفي شدق أحدها كرة، إنّها تتحرق شوقا للعب، ولكننا في هذه المرة أمرناها بالرجوع. **ادخل كوخك**. كان الجيران يتابعوننا بأنظارهم من خلف النوافذ. أبواق السيّارات لا تتوقّف. مجهولون يتفرّسون في وجوهنا. طفل على دراجة يلوّح لنا بيده. قط مذعور اختفى تحت سرير في بيت من بيوتنا عندما حطّم الناهبون باب الدخول. ستائر ممزقة. كأس مهشمة. أواني زواج محطمة على أرضية البيت. كنا نعرف أنها فقط مسألة وقت، قبل أن يزول كل أثر لوجودنا.

Twitter: @ketab_n

آخر يوم

بعضنا رحلوا باكين، وآخرون ضاحكين. واحدة كانت تضع يديها على فمها تكتم ضحكة مجنونة. بعضهم كانوا سكارى. آخرون رحلوا في صمت، منكّسي الرؤوس من شدّة الحرج والخجل. شيخ من جيلروي رحل على محفّة. وآخر - زوج ناتسوكو، وهو حلاّق متقاعد من فلورين- رحل متوكئا على عكّازين، وعَمرة قدماء الجيش الأمريكي مغروزة على رأسه. «لا أحدَ ينتصر في الحرب، الجميع مهزومون»، كان يقول. أغلبنا لم يكن يتكلّم غير الإنكليزية لكي لا يثير غضب الناس الذين بدؤوا يتجمعون عند مرورنا ليشهدوا رحيلنا. كثير منا فقدوا كل شيء ورحلوا دون أن ينطقوا بكلمة. كنا كلّنا نحمل ملصقة بيضاء عليها رقم تحديد الهوية مُثبتة على ياقة سترتنا أو ثَنْيَتِها. طفلة من سان لياندرو عمرها بضعة أيام رحلت في غفوة، عيناها نصف مغمضتين، وهي تتمايل داخل سلّة من الخوص. أمّها - ناومي البنت الكبرى لشيزوما- كانت نهبا للقلق ولكنها رحلت بأناقة، في تنّورة من الصوف الرمادي وحذاء أسود من جلد التمساح. «هل تعتقدون أنّ الحليب موجود هناك؟» ما فتئت تسأل. صبيّ من أوكسنارد يرتدي تبّانا قصيرا رحل وهو يسأل ما إذا كانت هناك أراجيح. بعضهم رحل في أجمل حلّة. آخرون في الثياب الوحيدة التي يملكونها. امرأة كانت تلبس فرو ثعلب. إنّها زوجة ملك السَّلَطة، كان الناس يتهامسون. رجل رحل حافي القدمين ولكنّه كان حليق الوجه، وقد صرّ بعناية كل ممتلكاته في مربّع

Twitter: @ketab_n

من القماش الأبيض: مسبحة بوذية، قميص نظيف، تميمة من النرد، جوارب جديدة، تحسّبا لأيّام أفضل. رجل من سانتا بربرا رحل بحقيبة من الجلد البنّيّ مغطّاة بملصقات كابية كُتب عليها باريس، ثم لندن، ثم فندق متروبول، بايروت[1]. كانت زوجته تسير خلفه بثلاث خطوات، حاملة لوح غسيل ودليل استعمال أفلحت في استعارته من المكتبة عن طريق إيميلي بوست. «يمكن أن أحتفظ به أسبوعا آخر»، قالت. كان هناك عائلات من أوكلاند تحمل أكياس بحّارة من الكتّان الخشن اشترتها قبل يوم من مونتغومري وارد. وعائلات من فريسنو كانت تحمل صناديق من الورق المقوّى تكاد تنفجر. آل تناكا من ديلانو رحلوا دون تسديد إيجارهم. آل كوبوياشي من بيولا رحلوا بعد أن غسلوا موقدهم بماء الجافيل وأرضية مطعمهم بالماء الحامي. آل سوزوكي من لومبوك تركوا أكداسا صغيرة من الملح أمام الأبواب لتطهير المنزل. آل واتنابي من سان كارلوس تركوا أزهارَ سحلبية مقطوفة من بيوتهم المكيّفة، في مزهرية على مائدة المطبخ، لمن سوف يأتي من بعدهم. آل إيغاراشي من بريستون حزموا حقائبهم في آخر لحظة، تاركين بيتهم في فوضى. أغلبنا رحل على عجل. كثير منا في حالة يأس. بعض النسوة في حالة تقزز عارم، وبلا أدنى رغبة في العودة. واحدة منا غادرت روبرتس آيلند في الدلتا تحمل تحت ذراعها نسخة من الكتاب المقدس وهي تدندن: «ساكورا، ساكورا.»[2] واحدة منا، قادمة من المدينة الكبيرة، ارتدت سروالا لأول مرة. يبدو أنه ليس مكانا يمكن أن نلبس فيه الفساتين. وواحدة أخرى من بيننا رحلت بعد أن مرت بصالون التجميل توك أون ذي تاون لأول مرة في حياتها. هذا

(1) مدينة ألمانية شمالي بافاريا، وهي عاصمة مقاطعة فرانكونيا العليا. اشتهرت بمهرجان الأوبرا الذي أسسه فاغنر منذ 1876.

(2) كلمة نابية يمكن تفسيرها بـ «فلتذهب إلى الجحيم.»

Twitter: @ketab_n

شيء طالما رغبت في إنجازه. واحدة منا غادرت مزرعة أرز بويلّوز مع هيكل بوذي صغير في الجيب وهي تقول لكل من صادفها إن الأمور ستعود إلى نظامها المعتاد. «ستحرُسنا الآلهة». زوجها رحل في ثياب العمل الملوّثة بالأوحال وقد خبّأ كل ما كسب طوال حياته في حذائه المطاطي. «خمسون سنتا»، قال معترفا مع ابتسامة وغمزة. بعضهن رحلن دون أزواجهن الموقّفين منذ الأسبوع الأول من الحرب. بعضهن رحلن دون أطفالهن الذين أبعَدْنَهم قبل سنوات. سألت أهلي أن يسهروا على تربية ولديّ حتى أخصّص للضيعة كل وقتي. رجل غادر مركز هايوارد بعلبة شوكولاتة أعطاه إياها صيني وامرأته بعد أن تسلما منه محلّه. رجل غادر مزرعة عنب في دينوبا وقلبه ينفت بالحقد على جاره أل نازاريان الذي لم يدفع له ثمن محراثه. لا يمكن أن نثق في الأرمن. رجل غادر ساكرمنتو مرتجفا، فارغ اليدين، وهو يصرخ: «كل شيء لكم.» أسايو -أجمل واحدة فينا- غادرت نيو رانش بريدوود بحقيبة الأسل نفسها التي حملتها في الباخرة، قبل ثلاث وعشرين سنة. تبدو دائما جديدة. ياسوكو غادرت شقتها بلونغ بيتش مع رسالة من رجل آخر غير زوجها، مطوية بعناية في علبة البودرة بجوف حقيبتها اليدوية. ماسايو رحلت بعد أن ودّعت ابنها الأصغر ماساميشي في مستشفى سان برونو، حيث سيوافيه الموت بسبب مرض النّكاف بعد بضعة أيام. هاناكو رحلت وهي تسعل بانزعاج، ولم تكن مصابة بغير زكام بسيط. ماتسوكو رحلت بصداع. توشيكو، بالحمّى. شيكي، في انزعاج شديد. ميتسويو، بالغثيان، لأنها، وهذا أمر غير متوقع، كانت حاملا لأول مرة وهي في الثامنة والأربعين. نوبوي رحلت وهي تتساءل هل سحبت المكواة من وصلة الكهرباء، لأنها استعملتها هذا الصباح لتسوية تجعدات قميصها. «يجب أن أعود!» قالت لزوجها،

Twitter: @ketab_n

الذي مدّ البصر أمامه ولم يجبها. تورا رحلت وهي تحمل مرضا تناسليا أصابها خلال آخر ليلة قضتها في **بالاص هوتيل**. ساشيكو، رحلت محطّمة القلب، بعد أن ودّعت كل أشجار بستانها. **غرستُها حينما كانت شتلا صغيرة**. ميوشي رحلت وهي تردّد زفرة حصانها رييو. ساتسويو، وهي تبحث عن جاريْها بُوب وفلورانس إلدريديج، اللذين وعداها بالقدوم لتوديعها. تسوجينو رحلت مرتاحة الضمير بعد أن ألقت في البئر بسرّ فظيع تكتّمت عليه زمنا طويلا. **ملأتُ فم الرضيع رمادا فمات**. كيونو غادرت مزرعة وايت رود وهي على اقتناع بأنها تعاقَب عن إثم ارتكبته في حياة سابقة. **لا شك أنّي دستُ عنكبوتا**. سيتسوكو غادرت بيتها في غريدلي بعد أن قتل كل دجاج القن. شييِيه غادرت غلندال وهي تحمل حداد ابنتها الكبرى ميتسوزو التي أَلقت بنفسها تحت عجلات الترولّي قبل خمس سنوات. سوتيكو التي لم تنجب أطفالا، رحلت وفي البال أن الحياة جانَبت سكّتها. شيزوي غادرت المخيم رقم 8 في ويب أيلند وهي تُرتّل سوترا استرجعتها ذاكرتها بعد أربع وثلاثين سنة. **كان أبي يتلوها كلّ صباح أمام الهيكل**. كاتسونو تركت غسيلَ زوجِها الوسخَ في سان دييغو وهي تزمجر: «**اقرصنني كي أفيق، من فضلكن.**» فوميكو غادرت بنسيونًا بكورتلند وهي تقدم اعتذارها عن الإزعاج الذي قد يكون سبّبه حضورها. زوجها رحل وهو يحثّها على التعجيل والسكوت قليلا. ميسويو رحلت في أَنَفة دون حقد على أحد. شييوكو التي كانت تلحّ علينا كي نناديها شارلوت، رحلت وهي تلحّ علينا أن نناديها شييوكو. **هذه آخر مرة أغيّر فيها رأيي**. إيو رحلت والمنبّه يرنّ في أحشاء حقيبتها ولكنّها لم تتوقف لإسكاته. كيميكو تركت حافظة نقودها على مائدة المطبخ، وعندما تذكّرتها كان الأوان قد فات. هاروكو تركت في ركن من بيت المؤونة

Twitter: @ketab_n

بوذا نحاسيا في حجم الإصبع لا يزال يضحك حتى اليوم. تاكاكو تركت كيسا من الأرز على أرضية المطبخ لكي تجد عائلتها عند العودة ما تأكل. ميسايو ترك مَداسا من الخشب عند باب الدخول ليعطي انطباعا بأنّ ثمّة من لا يزال بالداخل. روكو تركت مرآةَ أمِّها الفضيةَ لجارتها لويز هاستينغ التي وعدتها بالاحتفاظ بها حتى عودتها. **سأساعدك بكل الوسائل الممكنة.** ماتسويو رحلت بعقد من اللؤلؤ أعطتها إيّاه مُعلّمتها، مسز بانتنغ، لأنها اعتنت ببيتها طوال إحدى وعشرين سنة كما ينبغي. **نصف عمري.** سوميكو رحلت بظرف مليء بالأوراق المالية أعطاها إياه زوجها الثاني مستر هويل من مونتسيتو، بعد أن أخبرها أنه لن يرافقها. **أعادت إليه خاتم القران.** شيونو غادرت كولما وهي تفكر في أخيه الأصغر جيرو الذي أُرسل إلى مخيّم لمرضى الجذام بجزيرة أوشيما، في صيف 1909. **لم نعد إلى ذكره أبدا.** أيومي غادرت إيدنفل وهي تتساءل هل حملت معها فستانها الذي يجلب لها الحظ. **لا أحسّ من دونه أنني أيومي.** ناغاكو غادرت إلتشريتو وكلّها ندم على كل ما لم تفعله. **كنت أريد العودة إلى قريتي مرة أخيرة لأوقد البخور على قبر أبي.** ابنتها إيفلين رحلت وهي تقول لها: «هيا، أسرعي يا أمي. لقد تأخرنا.» امرأة نادرةُ الحُسن، لم ترها من قبل ولا واحدة منا، رحلت شاردة اللب والنظرة. زوجها، فيما يقولون، كان يحبسها في قبو لكي لا يضع أي رجل عينيه عليها. رجل من سان ماتيو رحل حاملا معه عصيّ غولف وزجاجة سكوتش أولد بار. **يقال إنه كان خادم شارلي شابلن.** رجل كنيسة – القس شيباتا من الكنيسة المعمدانية الأولى – رحل وهو يدعو الناس جميعا إلى النسيان والصفح. ورحل كاندا – طباخ **يابو نودل**– ببذلته البُنيّة اللامعة وهو يتوسل للقس شيباتا بأن يتركنا وشأننا. بطل قومي في صيد سمك

Twitter: @ketab_n

الذبابة من بيسمو بيتش رحل بصنارته المفضّلة من قصب البامبو مع ديوان روبرت فروست. هذا كلّ ما أحتاج إليه. فريق أبطال في البريدج بمونتيري رحل باسما والجيوب ملآنة. عائلة مؤاكرين من باجارو رحلت وهي تتساءل هل سترى من جديد واديها. عُزّاب متقدمون في السن، أحرقت الشمس وجوههم، خرجوا فجأة من كل مكان. كانوا يتبعون مواسم الجني منذ أعوام. بستاني من سانتا ماريا رحل وبيده غصن من عَصَل[1] بستان عَرفه وكيس صغير مملوء بالبذور. بقّال من أوسيانسايد رحل بصك لا قيمة له أعطاه إياه سوّاق شاحنة حمولات كبيرة مقابل مخزون محلّه. صيدلي من ستوكتون رحل بعد أن دفع معاليم سنتين ونصف في إطار عقد تأمينه على الحياة. كاشف جنس فراخ[2] من بيتالوما رحل وهو مقتنع بأننا عائدون جميعا بعد ثلاثة أشهر. سيدة مُسنّة من بوربنك، حسنة الهندام، رحلت مختالة، بخطى مَلَكية، مرفوعة الذقن. «إنها ابنة الفيكونتيسة أودا»، علّق أحدهم. «إنها زوجة بيلبوي غوتو»، علّق شخص آخر. رجل أطلق سراحه حديثا من سجن سان كنتان رحل وهو مدين بالمال لنصف تجار المدينة. «الوقتُ حان كي أرفع أشرعتي». طالبات في سراويل من الغبردين الأسود -بناتنا الكبريات- رحلن بأعلام أمريكية مثبتة على بلوفراتهن، وحول أعناقهنّ عقد من الذهب تتدلّى فيه بعض المفاتيح. شبان وسيمون في سراويل شينو هندية مكوية بعناية -هم أبناؤنا الكبار- رحلوا وهم يردّدون نشيد بركلي ويتناقشون حول مباريات الموسم القادم. أزواج شبان يعتمرون قبعات تزحلق متناسقة رحلوا متشابكي الأيدي دون أن يلقوا نظرة على من حولهم. زوجان هرمان

(1) Rhododendron: نبات دائم الخضرة ذو غلاف سميك على شكل بوق.

(2) متخصص في تحديد جنس صغار الحيوانات منذ ولادتها، وخاصة في مجال تربية الدواجن الصناعية.

Twitter: @ketab_n

من مانتيتا رحلا وهما يستعيدان نفس عبارات الخصام التي دأبوا عليها منذ التقائهما أول مرة. **لو تعيد هذا مرة أخرى**... رجل مسنّ من ألاميدا في زي فرقة الإغاثة رحل هاتفا: «الرب محبّة ! الرب محبّة!» رجل من سكّان يوبا سيتي رحل مع ابنته إلينور التي جاءت بها أمّها هذا الصباح، وهي إيرلندية كان هجرها منذ زمن طويل. **لم يكن يعلم بوجودها حتى الأسبوع الماضي.** مُكارٍ من وودلند رحل وهو يُصفّر لحن ديكساي بعد أن حرث آخر مزروعاته. أرملة من كوفينا رحلت بعد أن عيّنت وكيلا لها طبيبا طيبا اقترح عليها تأجير بيتها. «أظن أني ارتكبت خطأ فادحا.» امراة شابة من سان خوسيه رحلت بباقة ورد أرسلها إليها معجَبٌ مجهول في الحيّ فضّل البقاء في الظل. أطفال من ساليناس رحلوا بعرشة اقتلعوها من حديقتهم في صبيحة اليوم نفسه. أطفال من سان بنيتو ونابا رحلوا متدثّرين بملابس كثيرة، كي يحملوا منها أكبر قدر ممكن. صبيّة قادمة من غابة لوز نائية في أوكديل رحلت في خجل وخوف، وهي تطمر وجهها في تنورة أمها، لأنها لم تر قط مثل هذا العدد من الناس مجتمعين. ثلاثة أطفال من مركز رعاية الأيتام بسان فرانسيسكو رحلوا مبتهجين بركوب القطار لأول مرة. طفل في الثامنة قادم من بلاسيرفيل رحل بكيس بحّار أعدته له أمّه بالتبني، مسز لورمان، التي طمأنته بأنه عائد في نهاية الأسبوع. وأضافت: «هيا، اذهب الآن لتتسلّى.» طفل من ليمون كوف رحل على ظهر أخته: «كانت تلك الطريقةَ الوحيدةَ التي تجعله يترك البيت.» طفلة من كيرنفيل رحلت بحقيبة من الورق المقوّى مملوءة بالحلوى واللُّعب. طفلة من هيبر رحلت وهي تلهو بكرة حمراء من المطاط، خمس أخوات قادمات من سَلما - بنات ماتسوموتو - رحلن وهن يتخاضمن كالعادة حول أبيهن، والزرقة تحوق بعيني

Twitter: @ketab_n

إحداهنّ. توأمان من ليفينغستون رحلا وذراعاهما اليُمنيان مشدودتان بحمالة، رغم أنهما في صحة جيدة. «هما يحملان ذلك منذ أيام»، قالت أمهما. ستة إخوة قادمين من مزرعة فراولة بدومنغيث رحلوا في أحذية رعاة البقر خوفا من أن تلدغهم الثعابين. «أمامنا أرض وعرة»، قال أحدهم. بعض الأطفال كانوا يظنّون أنّهم سينزلون بمخيّم. بعض الأطفال كانوا يظنّون أنهم ذاهبون في جولة، أو إلى السيرك، أو ليقضوا نهارهم على شاطئ البحر في السباحة. ولد ينتعل زلاّجة ذات عجلات لا يهمّه أن يعرف إلى أين يذهب ما دامت هناك طرق مزفّتة. بعض الشبان رحلوا قبل شهر من تسلّم شهادات ختم دروسهم. **كان من المنتظر أن ألتحق بستانفورد.** فتاة رحلت وهي تعلم أنها كان بإمكانها أن تصبح الأولى في دفعتها بمعهد كاليكسيكو. بعض الأطفال رحلوا دون أن يفهموا الجذور ولا الأرقام العشرية. مراهقون في درس اللغة الإنكليزية، مع مسز كروزبيه، في الصف الرابع بإسكوندیو، رحلوا مرتاحي البال لتخلّفهم عن امتحان الأسبوع القادم. **لم أقرأ الكتاب.** ولد من هوليستر رحل بريشة بيضاء في جيبه، وكتاب عن طيور أمريكا الشمالية أهداه إياه رفاق القسم في اليوم الأخير. وَلَدٌ من بايرون حمل معه سطلا من الصفيح مملوءًا بالتراب. بنت من أبلند حملت معها دمية طرية من الخِرق، ذات عيون من الأزرار السوداء. بنت من كارّوثرز رحلت وهي تجر معها حبلا للقفز رفضت التخلي عنه. ولد من ميليبيتاس رحل وهو قلق على فرانك، ديكه الأليف الذي عهد به لجيرانه. «هل تتصور أنهم سيأكلونه؟» كان يسأل. ولد من أوسيان بارك رحل وأذناه لا تزالان تطنّان من أثر النباح الحاد لكلبه شيبي. وَلَدٌ يرتدي زي كشافة ماونتن فيو حمل معه جفنته وزقّه. بنت من إلك غروف رحلت وهي تشد أباها من كمّه وتلحّ عليه بالسؤال:

Twitter: @ketab_n

«بابا، عد إلى البيت، عد إلى البيت.» بنت من هانفورد رحلت وهي تفكّر في دجون، مراسلتها من ألاسكا. أرجو ألاّ تنسى المراسلة. ولد من براولي لم يمض وقت طويل على تعلّمه قراءةَ الساعة، رحل وهو لا يكف عن التطلع إلى ساعته. «ثمّة تغير في كل وقت»، كان يقول. ولد من بارلييه حمل بطانيةً من الفانلّة الزرقاء كانت تحتفظ برائحة غرفته. بنت ذات ضفيرتين طويلتين قادمة من بلدة تولاري حملت معها قطعة من الطبشور الوردي السميك. توقفت برهة لتودّع الناس الواقفين على الرصيف، وبحركة خفيفة سريعة، أشارت إليهم بالانصراف، وجعلت تقفز على الحبل. ثم رحلت ضاحكة. رحلت دون أن تلتفت.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

اختفاء

اختفى اليابانيون من مدينتنا. بيوتهم فارغة، مسدودة. صناديق بريدهم فائضة بالرسائل. صحفهم المتروكة تتكدس على الشرفات المتهاوية وفي الحدائق. سياراتهم جامدة في الممرات. نتف كثيفة من الأعشاب الطفيلية نتأت وسط مرجاتهم. الزنابق ذبلت خلف البيت. قطط المزاريب تتفسخ. بعض الملابس ظلت منشورة على حبال الغسيل. في أحد مطابخهم -وهو مطبخ إيمي ساتو- هاتف أسود لا يتوقف عن الرنين.

في وسط المدينة، على مين ستريت، ظلت المغاسل مغلقة. لافتات **للإيجار** ظهرت على واجهات المحلاّت الزجاجية. فواتير غير مدفوعة ووصولات استخلاص تتموّج في مهبّ الريح. **موراتا فلوريست** صار الآن **فلورس باي كاي**. فندق **ياماتو** تحول إلى **برادايز**. مطعم **فوجي** سيُعيد فتحَ أبوابه في نهاية الأسبوع تحت تصرف إدارة جديدة. مسبح **ميكادو** مغلق. **إيماناشي ترانسفير** مغلق. بقّالة **هارادا** مغلقة، وعلى واجهتها عُلّقت يافطة مكتوبة بخط اليد لم يسبق لأي منا أن رآها من قبل، **ليكن الرب معكم إلى أن نلتقي**. طبعا، لم يكن بوسعنا إلا أن نتساءل: من كتب هذا؟ هل هو واحد منهم؟ واحد منّا؟ وإذا كان واحدا منا، فمن هو؟ ذلك هو السؤال الذي كنّا نطرحه ونحن نضغط بجباهنا على الزجاج في قلب الظلمة، فنوشك أن نرى مستر هارادا بلحمه وشحمه يخرج من خلف الكونتوار خفيفًا بمئزره الأخضر الباهت، وهو

Twitter: @ketab_n

يمد إلينا حزمة هليون، وفراولة ممتازة، وعودا من النعنع، ولكن ليس ثمة ما يُرى. كانت الرفوف فارغة. الأرضية نظيفة جدا. واليابانيون قد رحلوا.

رئيس البلدية طمأننا بأنه ليس ثمة ما يستوجب القلق. «اليابانيون في أمان»، صرح في ستار تريبيون هذا الصباح. ولكن للأسف لا يحق له أن يعلمنا أين هم. «لن يكونوا في مأمن إذا كشفنا عن المكان الذي يوجدون فيه.» ولكن أي مكان يكونون فيه أكثر حماية، يتساءل البعض منا، ما هذا المكان، أهو في مدينتنا؟

النظريات، بطبيعة الحال، صارت منتشرة. قد يكون اليابانيون أرسِلوا إلى بلد اللفت السكّري، في مونتانا أو داكوتا، حيث الفلاحون في حاجة ماسّة إلى الأيدي العاملة لمواسم الجني في الصيف وفي الخريف. أو لعلّهم اتخذوا لهم هويّات صينية في المدن البعيدة حيث لا يعرفهم أحد. لعلهم في السجن. «بكل صراحة؟ قال أحد جنود البحرية القدامى، أعتقد أنهم رحلوا عبر المحيط، متعرجين يمنة ويسرة بين ناسفات الطربيد. لقد طردناهم جميعا إلى اليابان ما دامت الحرب قائمة.» أستاذة علوم بمعهد ثانوي محلي قالت إنها ما عادت تنام، خوفا مما هو أمرّ: أن يكونوا كدّسوا في عربات الماشية ولن يعودوا، أو هم في حافلة بلا نوافذ، وهذه الحافلة لن تتوقف أبدًا، لا غدًا ولا في الأسبوع المقبل، أو أنهم يعبرون جسرا طويلا من الخشب الواحد تلو الآخر على طريقة الهنود الحمر، وعندما يبلغون الطرف الآخر من الجسر، يكونون في المنفى. «أتخيل هذه الأمور حالما أتذكّر أنّهم رحلوا فعلا.»

المعلقات الرسمية لا تزال مسمّرة على أعمدة الهاتف في منعطف الشوارع، بسرّة المدينة، ولكنها كانت تمّحي، أو تتمزق إربا إربا، وبعد

Twitter: @ketab_n

الأمطار الربيعية الغزيرة المفاجئة التي انهمرت الأسبوع الماضي، لم تبق سوى أحرف العنوان الغليظة قابلة للقراءة: **أوامر إلى كل الأفراد ذوي الأصول اليابانية**. ولكن ماذا تتضمن تلك الأوامر بالضّبط؟ لا أحد منا يتذكّر. رجل يذكر على نحو غير دقيق أنه كان يُمنع حمل حيوانات أليفة وأن نقطة الانطلاق كانت مذكورة. «يبدو لي أنها إيمكا بالشارع الخامس غربا» قال. إلا أنه ليس واثقا من ذلك. نادلة بمطعم **بلو ريبون داينر** صرّحت بأنّها حاولت مرارا قراءة المعلّقات صبيحة تعليقها ولكن كان يستحيل عليها أن تقربها. «كل أعمدة الهاتف كانت محاطة بمجموعات صغيرة من اليابانيين القلقين». وما أثار انتباهها أنهم كانوا جميعا في غاية الهدوء، والصمت. بعضهم، كانوا يهزون رؤوسهم ببطء. وآخرون يسجلّون الملاحظات. ولكنّهم كانوا جميعا صامتين. كثيرون منا يقرّون بأننا حتى وإن كنا نقضي أياما جنب تلك المعلقات ونحن متجهون إلى المدينة، فإننا لم نفكر قط في التوقف لقراءتها. «لم تكن موجّهة إلينا»، كنا نقول. ثم: «كنت دائما مستعجلة.» وأيضا: «لم أكن أستطيع قراءتها لأنها مكتوبة بأحرف صغيرة جدا.»

أطفالنا هم الذين تأثّروا كثيرا بغياب اليابانيين. كان يردّون أكثر من المعتاد، ويرفضون إنجاز فروضهم، ولم يكونوا منشغلين بغير ابتكار المشاكل. من كان منهم لا يخاف الظلام، صار يخشى الآن إطفاء النور. «كلما أغمضت عينيّ، رأيتهم» قالت إحداهن، فيما يتوقّف طفل آخر عن طرح الأسئلة. إلى أين يتّجه بحثا عنهم؟ هل توجد مدرسة حيث هم؟ وما سيفعل بصدار ليستر ناكانو؟ «أحتفظ به أو أرميه؟» أمّا في ابتدائية لينكولن، فقد اقتنع فصل كامل من الأطفال في سن السابعة بأنّ رفاقهم اليابانيين الصغار ضاعوا في الغابة. «كانوا يأكلون البلّوط والأوراق، وكانت من بينهم طفلة نسيت صُدرتها، فأحست بالبرد،

Twitter: @ketab_n

لعلها ماتت.» تروي إحدى البنيّات، دامعةَ العينين وهي ترتجف «أجل. لقد ماتت» قال رفيقها مؤيّدا. وتذكر المعلمة أنّ أكثر اللحظات حرجا في اليوم صارت لحظة المناداة، وهي تشير إلى المناضد الفارغة: أوسكار تاجيما، أليس أوكاموتو، وتلميذتها المفضلة ديلوريس نيوا «إنّها في منتهى الخجل!» كانت تنطق بأسمائهم كلّ صباح، ولكنهم بطبيعة الحال لا يردون أبدا. «عندئذ أواصل تسجيلهم غائبين. وما عساي أن أفعل غير ذلك ؟» «هذا عار»، صرّح عون المرور الخاصّ بالمدرسة. «كانوا صغارا طيبين. سأشتاق إليهم كثيرا.»

بعض أفراد جاليتنا، رغم ذلك، أحسّوا بالارتياح لرحيلهم. لأننا قرأنا أشياء في الصحف، وأصغينا جيّدا للشائعات، فعلمنا أنه تمّ الكشف عن مخابئ سرية للأسلحة في أقبية أصحاب الضياع اليابانيين الذين يعيشون في المدينة، غير بعيد عنا، وحتى وإن كنا نخيّر الاعتقاد بأنّ الذين يعيشون هنا هم مواطنون صالحون وأهل للثقة، فإننا لا يمكن أن نكون واثقين من ولائهم المطلق. «ثمة أشياء كثيرة نجهلها عنهم، وقد كان ذلك يحرجني. كان لديّ إحساس بأنهم يحاولون التستر على شيء ما.» هذا ما قالته أمّ لخمسة أطفال. وعندما يُسأل أحد العاملين بمصنع الجَمد عمّا إذا كان يحس بالأمان وهو يعيش قبالة مياموتو، يجيب: «ليس تماما.» فقد كان هو وزوجته شديدَي الحذر منهم، ثمّ أضاف: «لأنّنا في الواقع، لم نكن متأكدَين. فمنهم الطيب ومنهم الشرير، حسب ما يُفترض. أمّا أنا فلا فرق عندي.» ولكن إجمالاً نجد صعوبة في الاقتناع بأن جيراننا القدامى يمكن أن يمثّلوا تهديدا للمدينة. وقد صرّحت مالكةٌ كانت تؤجّر بيتها لآل ناكامورا بأنّهم أفضل مستأجرين عرفتهم. «ودودون، مهذبون، وذوو نظافة عالية، حتى أنه يمكن الأكل في بيتهم على الأرض.» « ثمّ إنهم

Twitter: @ketab_n

يعيشون مثل الأمريكان، أردف زوجها. لا أثر عندهم لشيء ياباني. ولو مزهرية.»

بدأ الحديث عن نور يلوح في بعض بيوت اليابانيين، وعن حيوانات في حالة عسيرة، عن كناريّ شوهد جامدا عبر نافذة فوجيموتو، عن أسماك من الشبّوط الكُويّ محتضرة في بركة ياماغوتشي، وعن كلاب في كل مكان. كنا نقدم لها جفانا من الماء، قطعا من الخبز، بقايا وجباتنا، وكان الجزار يمدّها بشرائح لحم طازجة. كان كلب كوياما يتشمّم ما يُقدّم له بلطف ثمّ يولي الدبر، وكلبة يويدا تهرب ولا نجد الوقت لإيقافها قبل أن تجتاز باب الحديقة. أمّا كلب آل ناكانيشي -وهو كلب من نوع الأوكار الأسكتلندي، وصورة طبق الأصل من فالا، كلب الرئيس، الصغير الأسود- فإنّه يكشّر عن أنيابه ولا يدعنا نقربه. ولكن الكلاب الأخرى تُقبل نحونا جريا، وتفرح لقدومنا، كأنها تعرفنا من زمن، وتتبعنا إلى البيت، وما هي إلاّ أيام حتّى وجدنا لها أسيادا جددا. إحدى العائلات صرّحت بأنّها ستكون أسعد بتبنّي كلب ياباني. وأخرى سألت ما إذا كان ثمّة **كولي**[1]. فيما اختارت زوجة جندي شاب دعي حديثا لأداء الواجب العسكري **بيغل**[2] بنيا وأسود يُدعى ديوك، كان يتبعها من غرفة إلى غرفة دون أن ينزع عنها عينيه. «هو الآن حاميَّ، قالت. ونحن نتفاهم جيدا.» رغم أنها كانت أحيانا تسمعه يئن في منامه، فتتساءل ما إذا كان يحلم بأسياده.

بعض منا، علمنَ بذلك مؤخرا، كانوا لا يزالون بيننا. عراب اللعب، هيديو كيداما، حبيس سجن المقاطعة. امرأة حامل، تجاوزت موعد الوضع بعشرة أيام في المستشفى العمومي. **الرضيع لا يريد أن يخرج.**

---

(1) كلب إنكليزي يسمونه أيضا Rough colley من فصيلة كلاب الرعاة، قوي البنية، طويل الشعَر.

(2) beagle: كلب متوسط الحجم من أصول إنكليزية.

Twitter: @ketab_n

امرأة في التاسعة والثلاثين في مصحة المجانين، تتسكع كامل النهار عبر الأروقة، في خفّين وغلالة نوم، وهي تغمغم بصوت خفيض باليابانية بأشياء لا يفهمها سواها. الكلمات الإنكليزية الوحيدة التي تعرفها هي ووتر و غو هوم. وقد روى لنا الطبيب بأنّ ولديْها الصغيرين ماتا قبل عشرين عاما في حريق حينما كانت أمُّهما تغنم أوقاتا ممتعة مع رجل آخر في الحقول. وفي صبيحة اليوم التالي مات زوجها منتحرا. و«منذ ذلك الوقت، لم تعد كما كانت.» على تخوم المدينة، جنوبا، في مشفى كليرفيو، على سرير قرب إحدى النوافذ، يرقد صبي في الثانية عشرة ينهشه السفلس. زاره أقاربه آخر مرة عشية رحيلهم، وهو الآن وحيد.

كل يوم يمر يزيد المعلّقات على أعمدة الهاتف شحوبا. وذات صباح، لم تبق منها سوى واحدة. وفي لحظة اعترى المدينة إحساس غريب بأنها عارية. وكأنّ اليابانيين لم يوجدوا أصلا.

اللبلاب يغمر حدائقهم. صريمة الجدي تترامى من بيت إلى بيت. تحت الأسيجة التي لم تعد تجد العناية، رفوش منسية تصدأ. ليلكٌ بنفسجي يزهر تحت نافذة آل أوتيرو، ويختفي من الغد. شجرة ليمون في بيت آل سوادا وقع اجتثاثها. أقفال البيوت الأمامية والخلفية وقع خلعها بواسطة كلاّبة اللصوص. السياراتٍ مفكّكة. المخازن منهوبة. أنابيب المدفأة مقطوعة. صناديقٍ وحقائب أخرجت من الأقبية وحملت في شاحنات خفيفة في عزّ الليل. أكَرُّ الأبواب واللمبات اختفت. عندها، ظهرت لفترة وجيزة عند باعة السقَط والمرابين، في الشارع الثالث، أشياء دخيلة من الشرق الأقصى، قبل أن تنتهي عند بعض منا. فانوس من الحجر طلع وسط أزاليات[1] حديقة متوجة في مابلرديج رود. طلاء عوّض صورة مستحمة عارية في صالون إيلم ستريت.

(1) ج أزالية azalée: جنبة للتزيين من فصيلة الخلنجيات.

Twitter: @ketab_n

من شارع إلى آخر، زرابيّ شرقية تتجسّد تحت أقدامنا. وفي غرب المدينة، لدى الأمهات الشابات اللاتي يذهبن إلى الحدائق العامة كل يوم مسايرة للموضة، صارت العصيّات التي تشد بها العقصة فجأة من آخر صيحة. «أحاول ألاّ أتساءل كثيرا من أين جاءت، قالت امرأة شابة وهي تهدهد رضيعها على مقعد تحت الظل. «أحيانا، من الأفضل ألاّ نعلم.»

طوال عدة أسابيع، واصل بعض منا رجاءهم بأن اليابانيين سوف يعودون، ولم يقل أحدٌ إن ذلك سيدوم. كنّا نبحث عنهم في محطات الباص. عند بائع الأزهار. ونحن نمر قرب محل تصليح المذياعات في الشارع الثاني، **ناغاماتسو فيش** سابقا. ننظر بانتظام عبر النافذة إن كان بُستانيّونا قد عادوا إلى حدائقنا دون إعلامنا. **ثمّة أمل ضئيل في أن يكون يوشي هنا لجمع الأوراق.** نتساءل ما إذا كان ذلك، في جانب منه، ذنبنا نحن. لعله كان من واجبنا رفع عريضة إلى رئيس البلدية. إلى الوالي. إلى رئيس الجمهورية نفسه. من فضلكم، دعوهم يبقون. أو كان علينا ببساطة أن نطرق بابهم لنعرض عليهم مساعدتنا. آه لو عرفنا ! كنا نقول. ولكن آخرَ مرة رأينا فيها مستر موري خلف بسطة غلاله، كان مرِحًا كعادته. «لم يقل لي قَطّ إنه راحل»، قالت امرأة. ورغم ذلك، بعدها بثلاثة أيام، لم يعد هنا. صرافة في **أسوسيتد ماركت** روت أن الناس، عشية اختفاء اليابانيين، قاموا بتخزين الأطعمة «وكأن الغد لا وجود له». امرأة، فيما تروي، شرت أكثر من عشرين علبة من النقانق. «غاب عني أن أسألها عن السبب.» الآن، هي تأسف لذلك بطبيعة الحال. «أريد فقط أن أعرف ما إذا كانوا بخير.»

هنا وهناك، في صناديق البريد المتناثرة عبر أرجاء المدينة، بدأت

Twitter: @ketab_n

رسائل اليابانيين الأولى تصل. ولد، في سيكامور ستريت، تلقّى رسالة مقتضبة من إيد إيكيدا، أسرع عدّاء في إعدادية وودرو ويلسن. **ها قد وصلنا إلى مركز الاستقبال. لم أر في حياتي يابانيين بمثل هذا العدد. ثمة أناس لا يفعلون أي شيء سوى النوم كامل فترة ما بعد الظهيرة.** بنت تسكن مالبيري ستريت تلقّت أخبارا من يان، رفيقتها السابقة في المدرسة. **ما زالوا يتحفظّون علينا هنا قليلا، ثم سيرسلوننا إلى الجبال. أرجو أن تصلني منك رسالة.** زوجة رئيس البلدية تلقّت بطاقة بريدية موجزة من خادمتها الوفيّة يوكا التي طرقت بابها في اليوم الثاني من وصولها إلى أمريكا. **لا تنسي تهوية الأغطية في نهاية الشهر.** زوجة مساعد القسّ في فارست كونغريغاسيونال تشارش فضّت رسالة موجهّة إلى زوجها تُستهّل كما يلي: حبيبي، أنا بخير، فانهار كل شيء حولها. **من هي هاتسوكو؟** وبعيدًا عنها بثلاثة شوارع فقط، في بيت أصفر على فالنوت ستريت، ثمّة طفل في التاسعة يقرأ رسالة من ليستر، أعز أصدقائه - **هل تركت بلوفري في غرفتك؟** - فلم يكحل النوم جفونه لثلاث ليال.

بدأ الناس يطالبون بأجوبة. هل ذهب اليابانيون إلى مراكز الاستقبال بمحض إرادتهم أم تحت الإكراه؟ ما هي وجهتهم الأخيرة؟ لماذا لم يقع إعلامنا برحيلهم مسبقا؟ من سيدافع عنهم إذا كان ذلك ممكنا؟ هل هم أبرياء؟ هل هم مذنبون؟ هل رحلوا فعلا؟ أليس غريبا ألاّ أحد ممّن نعرف شهد رحيلهم؟ كأنه ما من أحد من بيننا رأى شيئا أو سمع شيئا، قال أحد أعضاء الدفاع المدني. «طلقة نار وقائية. زفرة مخنوقة. طابور من البشر يختفي تحت جنح الظلام. « لعل اليابانيين، قال الحارس المحلي للمجال الجوي، لا يزالون هنا، يراقبوننا في الظلّ، ويتفرّسون وجوهنا بحثًا عن علامة ألم واحدة،

Twitter: @ketab_n

أو ندم. ولعلهم يختبئون تحت شوارع المدينة حيث يُعدّون لهزيمتنا الحاسمة. فرسائلهم، فيما يلاحظ، قد تكون مزورة. واختفاؤهم، في رأيه، خدعة. والأدهى ما سوف يأتي، أردف في تهديد.

رئيس البلدية رجانا أن نتحلّى بالصبر. «سنقول لكم ما سوف يبلغنا عندما نستطيع ذلك». بعضهم أخلّوا بولائهم، والوقت يمر، وكان لا بد من التحرّك. اليابانيون غادرونا بمحض إرادتهم، فيما قيل لنا، بلا حقد، بطلب من رئيس الدولة. معنوياتهم لا بأس بها. يأكلون جيدا. إعادة إسكانهم جارية كما هو مرسوم. نحن نعيش مرحلة دقيقة، يذكر رئيس البلدية. نحن الآن على الجبهة، وسنعمل كل ما يلزم للدفاع عن بلدنا. «ستكون هناك عمليات مرئية، وأخرى لا. هذه الأمور تحدث. والحياة تتواصل.»

انفجر الصيف. الأوراق تنوء تحت أغصان المغنوليا. الشمس تصهر الأرصفة. الصيحات تملأ الجوّ عند رنين جرس المدارس وتوقّف الدروس مرة أخرى. الأمّهات مستاءات. سئمنا تكرّر هذا، يقلن في أنفسهن. بعضهنّ يسعين في البحث عن مربّيات جديدات للاعتناء بأطفالهن. وأخريات ينشرن إعلانات بحثا عن طباخات. كثيرون يطلبون بُستانيين وخادمات: فتيات قويات من الفليبين، فتية هنود نحاف وملتحون، مكسيكيون من أواكساكا قصار مدموكون، حتى وإن لم يكونوا دائما في هيئة رصينة، فإنهم يقابلونك بحرارة – **بوينس دياس**[1]، يبادروننا بالتحية، ويضيفون سي، **كومو نو؟**[2] – ويقبلون بجزّ مرجة الحديقة بمبلغ معقول. أغلبنا يغضّ الطرف ويعهد بغسيله الوسخ للغسالين الصينيين. وحتى إن لم تكن الألبسة كلّها مكوية

(1) بالإسبانية في النص الأصلي Buenos dias: صباح الخير.

(2) بالإسبانية في النص الأصلي ¿Sí, cómo no?: نعم، كيف لا ؟

Twitter: @ketab_n

كما ينبغي، والأطراف مجعّدة أحيانا، فإنهم لا يعيرون ذلك أهمية، لأن ذهنهم مشغول بهموم أخرى: الأبحاث التي أجريت بعد اختفاء ولد يُدعى هنري، شوهد آخر مرة يتأرجح على حطبة مدورة قرب الغابة («ذهب للالتحاق باليابانيين»، قال لنا الأطفال)، وقوع سبعة جنود من مدينتنا في الأسر، في معركة كورّيجيدور. المحاضرة السنوية خلال غداء **بيلغريم موذرس كلاب** من تنشيط لاجئ ناج من النازية، هو الدكتور راوول أشندورف، وعنوانها: «هتلر: نابليون اليوم؟» وكان الإقبال عليها من الكثرة ما جعل الجلوس مستحيلا.

وباستمرار الحرب، تضاءل خروج العائلات من بيوتها شيئا فشيئا. صار البنزين بالتقسيط. وصار الناس يقتصدون في استعمال ورق الألمنيوم. ظهرت حدائق النصر في المساحات المهملة، وفقدت أطباق الفاصولياء الخضراء رواجها. الأمهات يُمزّقن مشدّات خصورهن ليتبرّعن بمطّاطها ويتنفسن بحُريّة لأول مرة منذ عدة أعوام. «يجب تقديم بعض التضحيات» كن يهتفن. آباء قساة يفتككن من أطفالهم العجلات التي يستعملونها أراجيح. لجنة مساندة الصين حققت مراميها بجمع عشرة آلاف دولار، فبعث رئيس البلدية شخصيا ببرقية ليعلم السيدة تشانغ كاي شيك[1] بالخبر السعيد. مساعد القس لا يزال ينام على الكنبة. عدد كبير من أطفالنا يريدون مكاتبة رفاقهم اليابانيين، ولكنهم لا يعرفون ماذا يقولون لهم. آخرون لا يملكون الجرأة لإعلامهم بالأخبار السيئة. **ثمّة طفل جديد يحتلّ مكانك في فصل ميس هولدن. لم أتوصل للعثور على بلوفرك. بالأمس دهست**

(1) تشانغ كاي شيك (1887 - 1975) : قائد سياسي وعسكري صيني. تولى رئاسة حزب الكومنتانغ الوطني بعد وفاة صن يات سين عام 1925، وقاد الحكومة الوطنية لجمهورية الصين من 1928 إلى 1975، وصار رئيس «أول جمهورية صينية» عام 1928، ثم رئيسا لـ «جمهورية الصين» في تايوان حتى وفاته.

Twitter: @ketab_n

سيارة كلبك. بُنيّة من نورث فريمونت أفقدها موزع البريد حماسها، إذ شرح لها أن الخونة وحدهم يمكن أن يُطابقوا اليابانيين.

قادمون جدد نزلوا في بيوتهم. نازحون من أوكلاهوما وأركنساس جاؤوا من الغرب بحثا عن عمل صار متوافرا بكثرة بسبب الحرب. مزارعون افتُكّت منهم ضياعهم في جبال أوزارك. سود بائسون بصُرر ثيابهم، متخرجون حديثا من الجنوب. مشردون ومستقطنون[1]. أناس من الأرياف. ليسوا منا. بعضهم لا يحسن التعبير. يعملون بين عشر ساعات وخمس عشرة ساعة يوميّا في مصنع السلاح. يعيشون معا، بواقع ثلاث عائلات أو أربع. يغسلون ثيابهم في الشارع، أمام البيت، في حوض معدني. يتركون نساءهم وأطفالهم يفعلون كل شيء. وفي نهاية الأسبوع، يبقون خارج البيت، حتى وقت متأخر من الليل، يدخّنون ويشربون في الشرفة، عندئذ نبدأ في التحسّر على جيراننا القدامى، اليابانيين الحَييّين.

في نهاية الصيف، وصلتنا أولى الإشاعات عن قوافل السكك الحديد. هي قطارات قديمة، يقول الناس. آثار مرحلة بائدة. عربات مغبرّة بمصابيح بترول عتيقة وقاطرات بخارية. السقوف مُغطّاة بفضلات العصافير. النوافذ مسدودة بالدرف. تقطع المدينة تلو المدينة دون توقف. لا تطلق أبدا أدنى صفير. لا تتنقل إلا عند المغيب. قطاراتٌ أشباح، هكذا سمّاها كلّ من رآها. بعضهم قال إنها صعدت الممرات الجبلية الضيقة بسييرا نيفادا: ألتامونت، سيسكيو شاستا، تيهاشابي. بعضهم قال إنها تتجه إلى الخاصرة الغربية للمنطقة الصخرية. مدير محطة تراكي صرّح أنه رأى درفة تُرفع ووجه امرأة يُطلّ. «يابانية»، قال. ولكنّ ذلك جرى بسرعة، ما يجعله غير متأكد

(1) محتلو البيوت بطريقة غير شرعية.

Twitter: @ketab_n

منه. مرور القطار لم يكن متوقعا. والمرأة كانت تبدو مرهقة. شعرها قصير أسود، ووجها صغير مدوّر، ونتساءل ما إذا كانت من بنات جنسنا. ربّما هي أشبه بزوجة غاسل الملابس إيتو. أو بالعجوز التي كانت تبيع الزهور في نهاية الأسبوع عند مفترق إدواردز ستريت وستات ستريت. **كنا نسيمها فقط سيدة الأزهار.** أو لعلها امرأة صادفتنا في الطريق مرات كثيرة دون أن نُعيرها انتباهنا.

في الخريف، لم يكن ثمة حفل محاصيل بوذي في مين ستريت. ولا حفل أقحوان. ولا استعراض فوانيس الورق المرفرفة عند الغروب. ولا أطفال بألبسة الكيمونو القطنية، ذات الأكمام الطويلة، وهم يغنون ويرقصون على صوت الطبول الموقّع حتى وقت متأخر من الليل. لأن اليابانيين رحلوا، هذا كل ما في الأمر. «نتحيّر من أجلهم، ندعو لهم، ولكن ينبغي للحياة أن تستمر»، قال شيخ متقاعد عاش عشر سنين قرب آل أوغاتا. حينما يحس بالوحدة، يذهب للجلوس في الحديقة العامة. «أستمع للعصافير إلى أن أشعر بنفسي في حال أحسن، قال موضّحا. وبعدها أعود إلى بيتي.» أحيانا تمرّ عدة أيام دون أن يفكر في اليابانيين. ثم يلمح وجها أليفا في الطريق - إنها مسز نيشيكاوا من محل طُعم الأسماك، ولكن لماذا لا تحييه؟ - أو تنتهي إلى مسمعه إشاعة جديدة. **عُثر على أسلحة مردومة تحت شجرة برقوق لآل موياناجي. كُشف عن وجود راية التنين الأسود في بيت ياباني بأوك ستريت.** أو حين يسمع وقع خطى خلفه تقرع الرصيف، فإذا التفت لم يجد أحدا. عندئذ يستعيد كلّ شيء: اليابانيون غادرونا ولا نعلم أين هم.

عند نزول عواصف الصقيع الأولى، بدأت وجوههم تتشوّش، وتمّحي من ذاكراتنا. وأسماؤهم تتمنّع علينا. **هو مستر كاتو أو ساتو؟** وكفّت

Twitter: @ketab_n

الرسائل عن الوصول. أطفالنا الذين كانوا يشتاقون إليهم كثيرا، ما عادوا يسألوننا أين يوجدون. الأصغر سنا منهم صاروا يجدون صعوبة في تذكّرهم. «يبدو لي أنني رأيت أحدهم ذات مرة.» كانوا يقولون. أو: «ألم يكونوا كلهم سود الشعر؟» وبعد برهة، نلاحظ أننا نتحدث عنهم في الماضي. وفي بعض الأيام ننسى أنهم كانوا بيننا، حتى وإن أطلّوا غالبا أثناء اللّيل، على غير انتظار، في أحلامنا. **كان ابن السيد الذي يملك بيوتا مكيفة، إليوت. يقول لي لا تقلق، إنّهم بخير، وإنّهم يُطعمون جيدا، وإنّهم يلعبون البيسبول كامل النهار.** ولكن من الغد، عندما نستيقظ، ورغم كل جهودنا، لا نتوصل إلى ترسيخهم في أذهاننا.

بعد عام، اختفى كل أثر لهم في مدينتنا تقريبا. نجوم ذهبية تلمع عند نوافذنا. شابات حسان ترمّلن بسبب الحرب يدفعن أطفالهن عبر الحديقة العامة. على المسارب الظليلة التي تحف بالصهريج تتجول كلاب ذات أرسان. في وسط المدينة، على شارع مين ستريت، تفتّح النرجس الأسلي. **نيو ليبرتي شوب سوي** يعج بعمال حوض بناء السفن في فترة استراحة غدائهم. جنود في رخصة يتجولون في الشوارع، والأمور على ما يرام في فندق برادايز. محل **فلوورس باي كاي** صار الآن **فولايس سبريت شوب**. بقالة **هارادا** اقتناها صيني يدعى وونغ، باستثناء ذلك، لم يتغير أي شيء، وحينما نمر أمام الواجهة، كان من السهل أن نتصوّر أنّ كلّ شيء مثلما كان تماما. غير أن مستر هارادا لم يعد بيننا، ولا بقي واحد آخر من اليابانيين. صار من النادر أن نتحدث عنهم، رغم أن بعض الأخبار كانت تجيئنا من الناحية الأخرى للجبال - مدن يابانية بحالها نتأت في صحاري نيفادا ويوتاه، في الإيداهو يجمعون اللفت السكري في الحقول، وفي اليومينغ

Twitter: @ketab_n

شوهدت مجموعة أطفال يابانيين يرتجفون من شدة الجوع يغادرون الغابة وقت المغيب. ولكنها ليست سوى إشاعات، وهي ليست صحيحة بالضرورة. كل ما نعرفه أن اليابانيين هناك، في مكان ما، في هذا الموضع أو ذاك، وأننا بلا ريب لن نراهم في هذه الحياة الدنيا مرّة ثانية.

Twitter: @ketab_n

«بوذا في العالم السفلي»
أو رجع الزمن في استرجاع المحن

بأي معنى يمكن للمرأة أن تسترجع حكاية جدّة منسيّة وترويها بتفاصيل اليوم كما لو كانت تمثالا مُحنّطا أُخرج من تابوته ليشهد من جديد محاكمة التاريخ، محاكمة الماضي، محاكمة الذين مضوا في غفلة من الدهر، مضوا في صمت؟

هكذا هو هذا النص، محاولة سير على خطى من كنّ يوما ما هنا يغزلن ويفلحن الأرض ويزرعن ويحصدن ويحلمن ويوشوشن الكلمات.

قصص معتّقة جيلا بعد جيل، لم تبل رغم تبدّل الحال وتلوّن الأحوال، متشاكلة في الرسم متنافرة في الاسم لنساء عبرن يوما الجسر نحو حياة جديدة زادُهنّ فيها صورةٌ وقَدرٌ عال من الأحلام والآمال. تخدّد وجه الحلم بمجرّد اكتشاف الفجوة بين الصورة والحقيقة، فإذا الرجل الوسيم الأنيق الذي أرسل صورته الفوتوغرافية شاهدا على صدق نيته في الزواج لا يطابق في شكله المادي أو المعنوي ما نطقت به المؤشرات التي أطلقها وعودا في رسائله أو صوره، وبذلك كانت الخيبة الأولى درسا صامتا يعلّم الرضوخ والتسليم ويكشف عن الحياة في وجهها الغاضب. فلِمَ الغضب؟

تلك هي رواية «جولي أتسوكا» تتخذ من بوذا مُسمّى رمزيا للتجربة وبديلا موضوعيا، «بوذا في العلية» أو «بوذا في العام السفلي» تعبيرات ومعان حرفية أو تأويلية تعكس التأرجح بين وضعين بين العلوّ والانحدار

Twitter: @ketab_n

نحو الحضيض وفي كل ذلك مراحل ونكبات وفصول من المعاناة تروى أو لا تروى.

ما الذي نغنمه من استعادة بعض ما سكت عنه المؤرّخون؟ وكيف يمكن أن نقتحم «قداسة» التاريخ من خلال حكايات النساء وأخبارهن؟

في فصول هذه الرواية ما يغرينا بتجربة القراءة دون استيفاء النص، ففيه من الشفافية في العرض الذي يدخل تحت مبدأ كشف المُخبَّأ ونبش المستور، ما يستثير فضول الناظر ليختبر مستويات الاعتراف ويسيح في مسالك مجتمع للنساء ومجمع للذاكرة، ذاكرة نسوية وذاكرة أقليّة مهمّشة في مجتمع متعدّد.

نون النسوة : هن الساردات والمسرودات

«في الباخرة كنا عذارى جميعا أو هكذا كان أغلبنا على الأقل»

بهذا الافتتاح «الأنثوي» جدّا اختارت الكاتبة أن تُسطّر البداية وتُدشّنها وهي بذلك تكشف عن تغلغل الأفق الأنثوي في كل ما يرد في هذا النص على شكل خطاب عن المرأة.

فإلى جانب خطاب الدفاع الصامت والبحث عن التكريم والتشريف لكلّ النساء اللائي عبرن الجسر بصمت ماضيات نحو مصير قاس ومغلوط، تقدّم المرأة في أكثر أشكال الأنثوية نرجسية من خلال التركيز على فكرة الجسد فضاءً وحيدا ومستودعا لنشر كلّ الصور التي ترتسم عن العالم وكلّ أشكال التمثيل والفهم، فمن خلال روائح الباخرة والجزء السفلي منها حيث سكنت العذراوات المهيئات لحياة زوجية زادُها الوهمُ والتأميل، الروائح التي وُصفت بأنّها مُسبّبة للغثيان، ومن خلال الأسئلة عن شعر الجسد تلميحا إلى التجربة الجنسية، ووصف أقدام بعضهن بالمفلطحة وأصابع

Twitter: @ketab_n

إحداهنّ بالناعمة، نلمس أن الهواجس والمخاوف والأحاسيس كلها اختزلت في فضاء الجسد، وكان عرضها أوسردها في شكل يعمل على نوع من الإدخال interorisation وبالأحرى ترجمة التمثّلات المختلفة عن العالم المحيط بهنّ خارجيا وداخليا عبر الجسد وردود أفعاله المختلفة. وفي مقابل الحضور المهم لمسار الإدخال يغيب المسار المخالف بشكل تامّ، فهذا النص المتلفّع بثوب الرواية تخفت فيه أصوات النساء، فلا وجود للحوار المباشر ولا مكان لحكاية الأقوال إلاّ ما جاء بشكل غير مباشر محاكاة نمطية لما يعرف من أقوال في المقامات المختلفة. لم تحفظ اليابانيات شيئا من لغة العالم الجديد ولم يُتقنّ منها إلاّ ما يُحتاج إليه في التخاطب في مقامات معلومة، في مقامات بسيطة جدا مثل طلب الماء في حال غلبهنّ الإعياء حتى أغمي عليهنّ في ساعات العمل الطويلة في الحقول. وهذا الرفض لاعتناق لغة تعيّن تجربة اليومي وتجربة الحياة الباطنة من خلال لغة أخرى غير اللّغة الأمّ يمكن أن يُفهم في معنى الانكفاء النرجسي على الوضع الذي قدمت به الآنسات اليابانيات إلى هذا العالم، انكفاء يتّخذ فيه التعبير عن التجربة الجديدة صفةَ التوجّس والخوف، ويكون فيه الجسدُ القناةَ الوحيدة لتمثيل ذلك. تفهم العذرية في معنى جسدي وفي صفة وحيدة تختزل كيان اليابانية التي تستعدّ لعبور الجسر وخوض مغامرة مشوّقة ومخوفة زادُها في ذلك شوقٌ جسديّ إلى هذا المخيف والممتع في نفس الوقت: «هل سيُحدث ذلك ألما؟»، فهذه الجملة تعلن بوضوح عن الأبعاد الذهنية والنفسية للموضوع حيث يُختزَل وعي الأنوثة كله في تجربة جسدية وحيث يفضح التعلّق بالألم الازدواجية في هذا الوعي الذي ينكر الشيء ويرغب فيه في آن، يمقته ومع ذلك يتوق إلى بلوغ الحد الأقصى في تجربته، فهو ليس مجرّد تجربة منتظرة وحتمية. إنّه

Twitter: @ketab_n

المعرفة التي ستتحقق من الرحلة والإضافة المعنوية والاجتماعية التي أنقذت فريقا واسعا من اليابانيات الريفيات في الغالب من أن يقضين بقية أعمارهن في حقول الأرز أو راعيات لأب عاجز أو جدّ مُسنّ أو أمّ متسلّطة.

لا تكتفي الإسقاطات الجسدية بتحديد الموقف من التجربة وتعيين موقع الذات منها، بل نرى أنها تعمل أحيانا على كشف الاختلاف الإثني وتعميقه، وإذكاء التقابل بين هويتين مختلفتين تمام الاختلاف، لم يكن اختلافهما يفهم عند اليابانية قبل عبورها الجسر سوى في علامات جسدية تبرز الفرق بين نحن وهم، وهذه العلامات وإن كانت تُقرأ في صفات جسدية، فهي أيضا تستشعر بصورة جسدية، فالقشعريرة التي صدرت عن الآنسات اليابانيات وهُنّ ما يزلن في الباخرة عندما كشف تشارلز عن ذراعه المكسوة بالشعر. تعبّر بوضوح عن نوع من استبطان تجربة الرفض للآخر المختلف في شكله، ونوع من استبشاعه، وسواء كان هذا الآخر رجلا أم كان الأمريكي بشكل عام، فإنّ الرغبة في رؤية الشعر الكثيف الذي يغطي جوانب من الجسد وطلب الكشف عنها وعن مناطق غير الذراع يعدّ موقفا إشاريا في مغزاه إلى تحكم اللاوعي في إنتاج صور نمطية عن الآخر وعن الذات، مضمونها أن الذات اليابانية أنثوية ناعمة صافية نقية تواجه الآخر الذي يبدو في صورة أقرب إلى الخشونة والوحشية وربما الحيوانية.. وأن الموقف من الآخر يرتسم أوّلا من خلال صورة جسدية تستقر في اللاوعي علامة مذكية للتقابل بين ثنائيات المرأة الناعمة في مقابل الرجل الخشن، والياباني في مقابل الآخر، وبالأحرى الشرقي في مقابل الغربي ذي الجسد المشعر.

و إذا علمنا أن هذا الخطاب يسترجع أحداثا ترويها الحفيدة عن

Twitter: @ketab_n

الجدّة أو من هي في مقامها، فإنّنا نرى أن المدخل الذي دشّن فعل القصّ كان مدخلا نسويا لا يخلو من حنين إلى مواقف، وإن بدت مؤلمة، توغل في نرجسية مخصوصة هي نرجسية الفقير حسّا ومعنى، وتُقدَّم للقارئ في نوع من التكريم والتعظيم لمسار نساء لم يدخلن القلعة الأمريكية غازيات بل صامتات مغضيات على قذى وصابرات.

لقد اختُزل العالم الجديد بالنسبة إلى هؤلاء العذراوات الصامتات في بيت وزوج، فلم تكن أمريكا تعني شيئا سوى العبور إلى عالم ما بعد البكارة، وما بعد حقول الأرز والكيمونو الحريري الأبيض، فكان عبور الجسر الذي يصل بين السفينة واليابسة بمثابة العبور من الوهم نحو الحقيقة التي اكتفت الفتيات اليابانيات بالتعبير عنها بقولهنّ «أخذونا»، وقد تكررت المُفردة لتستوعب كل سيناريوهات «الأخذ» - إن صحّت العبارة- فمن قولهنّ أخذونا على حصير قذر، وقولهن أخذونا من الليلة الأولى ونحن مازلنا نعاني الدوار والغثيان بسبب الرحلة، إلى قولهنّ أخذونا بعنف ونحن نصرخ وهم يقولون ستحبين هذا في ما بعد، وغير ذلك من الصور التي تراكمها الذاكرة النسائية وهي تعمل من خلال مسار المراكمة والحشد على جمع كل تفاصيل تجربة نساء مختلفات في تجربة واحدة تستحضر كل العناصر وتخصص حيزا لكل تجربة، فلا يرغم المتعدّد على أن يكون واحدا جامعا، بل يقدّم هذا الواحد الجمع مُشَكّلا من صور لا متناهية لا تهمل تسجيل كل تجربة، ولا تُغفل أبسط تفصيل من تفاصيل الصورة.

كل عذراء شهدت ليلتها بطريقتها، وتفاصيلُها تسجّلها القصّة كما لو كانت حدثا مفردا معزولا عن باقي الأحداث رغبة في تثبيتها في مسار شبيه بمسار التأريخ للأحداث العابرة والبسيطة، تاريخ الناس البسطاء، تاريخ النساء المنسيات اللائي كن في الباخرة مجرّدَ أنفاس

Twitter: @ketab_n

مكتومة في القسم السفلي، وفي العالم الجديد أصبحن مجرّدَ حضور باهت للممتهنات في الحقول والبيوت وحول قوارب الصيد.

يُفهم العبور في كلّ معانيه المحتملة، فهو عبور جسديّ وعبور اجتماعيّ وعبور ثقافيّ، وكلّ مرحلة من هذه المراحل أشبعت تفصيلا، سواء من خلال تفاصيل الحاضر أو تفاصيل الماضي، عندما تستحضر ذكريات الماضي في الموطن الأصل في لحظات بعينها وتكون نصيحة الأمّهات درسا يُستحضر لتعزيز الشعور بالندم على اختيار أَقدَمْنَ عليه راضيات مستبشرات، فإذا هو يتكشّف على مصير قاتم أظلم. إنّ قول الأمّهات لبناتهنّ قبل الرحيل «النساء ضعيفات لكنّ الأمّهات قويات» يرسم بوضوح التصوّر الذي اعتنقته المرأة عن التحوّل الاجتماعي، إذ تخرج من دور إلى آخر، متمثلا في امتحان قاس، وكأنّ فعل التأهيل الاجتماعي والاعتراف المجتمعي لا يكون إلاّ عبر بوتقة الألم والتحمّل والجور المعنوي والجسدي.

أوضح مظاهر التأهيل الاجتماعي تجسّم في تجربة الأمومة، وهي تجربة وإن عدّت - في حياة الأنثى- تحقيقا للعبور في معناه النفسي والجسدي والاجتماعي، فقد اقتصرت في هذا النص الروائي على تعداد الأماكن التي تم فيها الوضع وذكر أسماء المواليد السويين منهم وغير السويين، فيحلّ فعل «أنجبنا» المتكرّر بلا هوادة محلّ فعل «أخذنا» الذي كان في السابق يعبّر عن تجربة العلاقة الزوجية. فلكلّ تجربة فعلها وكأنّ التجارب جميعا تُرَدّ إلى صيغة نمطية واحدة. إنّ الاقتصار على تكرار الفعل موصولا باسم المولود ومكان وضعه تحت شجرة توت أو وسط حقول الكروم أو في عربة نقل الفواكه أو بمساعدة طبيب عطوف، ينزع عن فعل الولادة كل معنى إيجابي يرتبط بمنح الحياة ومكابدة الألم الذي يفضي إلى فرج وسعادة واكتفاء. فإذا

Twitter: @ketab_n

كانت النظرة الرومنسية لتجربة الوضع تسبغ عليها طابعا من التعظيم والاعتبار فإنّ في سرد اليابانيات المهجّرات لتجربة الولادة ما يسخر في صمت بليغ من التصوّرات الساذجة التي عشّشت في أذهان النماذج المستكينة من النساء الشرقيات ويسفّه كل الاعتبارات الأخلاقية والقيمية لنموذج جَندريّ يعبّئ بالوهم وضعيّة مُهينةً للمرأة ويعمل على تكريسها مُغالَطةً وزيفا .

وضعت اليابانيات أطفالهنّ كرها، وبين الوضع والتربية، دكّكن كلّ حصون الشرق التي شيّدتها أمّهاتهن الصابرات في تجميل صورة المرأة وهي تُمتهن اجتماعيا وثقافيا عبر طقوس متوارثة وكليشيهات متناقلة. دككنها في صمت ودون سابق إنذار أو مقدّمات تفضي إلى نتائجها، مثل هروب بعضهنّ من بيوت أزواجهنّ واختفائهن فجأة، أو انسياق أخريات وراء علاقة آثمة وانتحارهنّ عند اكتشاف الأمر، وإدمان القسم الأكبر منهن العمل القاسي المضني نهارا في الحقول وليلا في بيت الزوجية.

كانت ولادة الأطفال فعلا طبيعيا انتفت عنه كل صفات الإنسانية التي تحفل بهذا العبور من طقوس للنفاس واحتفال بالمولود وغيرها ليكون مجرّد فعل بيولوجي. وضعت اليابانيات المهاجرات أطفالهن كما تضع الدواب وعملن في حقول الطماطم والكروم كما تعمل الدوابّ.

وكما أُفرغت الولادة من كلّ معانيها أُفرغ العمل من كل دلالاته الفردية والجماعية وأضحى اغترابا ومهانة وبذلك دُمّرت كلّ الحصون التي يمكن أن تعمل على نحت ملامح كيان إنساني للمرأة وأضحت تفريغا لها وتعتيما.

لا تخفى نزعة المحاسبة المستفيدة من المراجع المعرفية النسوية في مثل هذا الخطاب الذي يطالعنا به النص الروائي، لكنّ الخفيّ

Twitter: @ketab_n

فيها حقا هو الجمع الذكي بين صورة الإثنية اليابانية واقعةً في شرك مشروع هيمنة غير واضحة المعالم، وصورة المرأة التي تعيش هذه الفاجعة مضاعفة، فالرجل الذي اقترنت به واختارته زوجا بناء على مسوّغات مقنعة ومُغرية لم يكن سوى عون من أعوان الهيمنة تكشّفت حقيقته بمجرد عبور الجسر وبدأت أقنعة الكذب تسقط تباعا.

فالمتسلّط الأول كان زوجا، والجلاّد الأول كان زوجا، وبعد الزوج تكفّلت منظومة مُعقّدة من البنى بالبقية الباقية من أيقونة «الشرق العظيم» مُجسَّمةً في مُجسّم نحاسيّ لبوذا وكيمونو الحرير الأبيض وزهرة اللوتس التي تنتظر تفتّحها الليلي.

كان واقع العمل شبيها بمفهوم «الاحتراق» فقول بعضهنّ «أظن أنّ روحي قد ماتت» يدفع إلى تدبّر هذا الاعتراف لفهم الكيفية التي يتحوّل بها العمل من عملية بناء للذات الإنسانية إلى الحد الأقصى من حدود التدمير لها، وهو حدّ التدمير المعنوي والنفي التام لها، حيث تسلّل إلى الشعور العائلي فأفقره في نفوس اليابانيات العاملات بجدّ كل يوم، المتبجّحات بأنهنّ أفضل أنواع اليد العاملة الّتي يفضّلها الأمريكان لأنّها زهيدة الثمن وبالغة النجاعة في أدائها. فقول إحداهنّ «لم ينتبه أزواجنا إلى اختفائنا يوما» قول بليغ يمثّل استعاريا لتحول المرأة إلى حضور شبه شبحي من فرط العمل الدؤوب المتواصل حيث تبدو «الشبحيّة العدمية» إن صحّت العبارة مرحلة تفوق حدود التشيّؤ.

إنّ «الشقاء» مفهوم أساسيّ في الدلالة الأصلية للعمل يستعمل في النصوص الأدبية في معناه الرمزي ليمجّد ملحمة العُمّال المخلصين الذين يبنون بسواعدهم صروح الحضارة الإنسانية، لكنّه يُوظّف هنا في سياق بعيد عن تلك السياقات الاعتبارية حيث يصبح الامتهان والبؤس عاملين فاعلين في احتراق «المثيولوجيا القومية» للياباني

Twitter: @ketab_n

المثالي في كده وعمله، وتحوّلها إلى محض خدعة تورث المرض والغبن والكراهية بين الشعوب.

الهوية الإثنية ومشكلة التمثيل

تستجيب هذه الرواية لقراءة أفقُها مسألة الهوية وقضية «الإثنية في الشتات» وهي مسائل نشطت في ظل المقاربة ما بعد الاستعمارية. ولئن كان السياق التاريخي لهذه المقاربة غير مُعلن في الرواية فإنّ سياقها المعرفيّ والفكري يبدو ظاهرا تماما. لابد أن نميز بين مفهوم الإثنية والمجموعة الإثنية، فالحي الياباني لم يكن في المدينة سوى منطقة مغلقة على مجموعة تشترك في سمات خلقية، إلى جانب الإرث التاريخي والثقافي وجملة من العادات اليومية، فضلا على امتهانها نوعا معينا من الأنشطة الاقتصادية. وهذه الصفات مجتمعة هي التي أهّلتها لأن تكون مجموعة إثنية تقيم خارج موطنها الأصل، مجموعة إثنية في الشتات. تعدّ العلاقة بين الإثنية والمجموعة الإثنية تلازمية، فلا تكون هذه دون تلك، لكن الشعور بالانتماء الإثني في معناه التمييزي المانح للهوية مطلقا يكون عند الجماعة الإثنية أظهر وأعمق، وربّما أدت وطأته إلى ما يشبه الانتفاضة أو الثورة الإثنية.

إنّ انعزال اليابانيين في حيّز جغرافيّ داخل المدينة وامتهانهم نوعا معيّنا من العمل لم يكن كافيا لتأكيد الخصوصية القومية والإثنية، لذلك عملت التضمينات الثقافية على إبرازه وتعميقه، وتجلى ذلك خاصّة في سلوك النساء أكثر ممّا تجلى في سلوك الرجال، إذ يُفهم استحضار صورة بوذا وزهرة اللوتس أو المجسّم الصغير له في حالات الشدة والضيق، والحرص على ارتداء «الكيمونو» الحريري الأبيض في حالات الدعة والأنس، على أنّه نوع من تقديم الصفة الثقافية في مشروع الهوية على غيرها من الصفات. ففي واقع المجموعات الإثنية

Twitter: @ketab_n

المهاجرة كثيرا ما يكون الوعي الثقافيّ أهمّ من الراهن المشترك اجتماعيا واقتصاديا. ولاشك أن الحرص على إبراز الاختلاف يشفّ عن مشروع ضمني لفضح النوايا الإمبريالية التي شكّلت قسما مهما من هوية «العالم الجديد»، ذلك أنّ التعامل مع اليابانيين بوصفهم مجموعة إثنية يعبّر عن وضعية شكّلت الجماعة الأنجلوسكسونية ملامحَها، وتقبّلتها الإثنيّة القوميّة المهاجرة واستبطنت الشروط الضمنية الكامنة داخلها، ونعني بذلك شرط الإخضاع والعزل والامتهان بوصفها بدائل موضوعية للاستعمار. فهل نفهم من كتابة هذا النص المعبّأ بنزعة الحنين والتثبيت لمواقف وأحداث سكتت عنها المؤلفات التاريخية أن القصد هو اتخاذ المجموعة الإثنية موضوعةً مثالية للتظلّم ومحاسبة المعتدي، أم هو على العكس من ذلك استنفار لكل الوسائل المعنوية والمادية لمحاولة تجميع عناصر الهوية واستكمال مشروعها؟

ما الداعي إلى تثبيت هذه الهوية إن كانت موجودة أصلا؟ أليس هذا الخطاب الرامي إلى إذكاء الفرق الحضاري والثقافي بين أمريكا والوافدين اليابانيين، والمستند إلى فكرة الإثنية بوصفها مدخلا أوحدَ للتمثيل يكشف فيما هو يهدف إلى التمثيل عن استحالته وامتناعه؟

لعلّ الرغبة الملحّة في تسجيل أبسط التفاصيل التي تعلّقت باليابانيين الذين كانوا فترة ما قبل الحرب العالمية الثانية يعيشون في أمريكا وتحديدا في كاليفورنيا، اتجهت في الظاهر إلى رسم ملامح الهويّة في منحى شبيه بما يتحدث عنه «ريموند ويليامز» بـ «ديموقراطية التمثيل» نازعة نحو نيّة التصحيح التاريخي وإضاءة المناطق المعتمة، لكنها في الحقيقة تعمل على تأكيد فكرة صعوبة التمثيل أو خيانته وأنّ الحي الياباني الذي كان واقعا يعج بالحياة وبالأطفال المهذبين

Twitter: @ketab_n

اللطفاء والحدائق المنزلية المنسّقة بعناية زهورها ليس سوى وهم تفجّر في وعي مجموعة إثنية عاشت التهجير أكثر من مرة وتولّعت بحس الغرابة (exotisme) وهو ما تجلّى من خلال البحث عن صورة ممكنة للشرق.

أين هو الشرق؟ أليس تأسيس ملامح الهوية من خلال مقابلة المجموعة الإثنية بما يخالفها، والاكتفاء بصورة من كان واقعا تحت سيطرة شبه استعمارية ثم استعاد وضعيته الطبيعية، وانبرى من خلالها إلى إقامة مشروع الهوية من داخل المفاهيم الاستعمارية ذاتها، هو ضرب من إعادة إنتاج ذات الخطاب الذي كان يستعمله القويّ الغالب؟

أليس الحي الياباني الذي كان يعمره يوما ما آلافُ اليابانيين قد تبخّر فجأة واندثر ولم يبق منه لجيرانه حتى طعم الذكرى المالحة؟ أليس اختفاؤه علامة على فشل إمكان من إمكانات الهوية الإثنية التي عمل عليها أصحابها أكثر منه اعتداء وعنفا رمزيا مُسلّطا من الآخر المختلف في هويته وإثنيته وقوميته؟

هل يوجد يابانيون حقا؟ وهل يوجد شرق حقا؟

يمثل هذا النص الروائي طرحا لمشروع الهوية باعتماد «الإستراتيجية الثقافية» لكن هذه المحاولة تبوء بالفشل بسبب انعدام ما يشد هذه المجموعة إلى بعضها عدا الرابط الوجداني، فكأنّها من حيث ألحّت على وصف الحضور أكّدت أنّ الداخل يسكنه الغياب. الحي الياباني لم يكن كيانا متكاملا والدليلُ أنّ عملية التوصيف والتعريف طالعتنا بصور مجزّأة مشتتة وغير متسلسلة، وكان لسان حال هؤلاء يقول «نحن لسنا عصبة، نحن هامش شاحب ونساؤنا مقهورات».

Twitter: @ketab_n

ولما كان الفكر المتشرّب المنزع الإمبريالي قائما على خلق وضع بين ثقافتين: ثقافة مهيمنة وأخرى مقهورة مسيطر عليها وخاضعة، فإنّ ذلك يؤول غالبا إلى ازدواج الوضع وتبادله بين الطرفين، ولاسيما أن الثقافة المقهورة تستعمل نفس الأدوات التي أنتجتها الثقافة الغالبة في التعبير عن وضعها وصياغة خطابها المقاوم لهذه السيطرة ثقافيا واجتماعيا.

ومن الطريف حقّا أن تنقلب الأوضاع، فتصبح ردة فعل المهيمن عليه ثقافيا هي ممارسة لعبة الهيمنة وإقصاء الآخر، ولو على المستوى الرمزي، أي استعادة ما يُمارس عليه من عنف، وأوضح مظاهر الاستبدال لخطاب الهيمنة ونبذ الآخر المختلف ما نجده في خطاب النساء حينما يسترجعن تجربتهنّ الطويلة في العالم الجديد ويستحضرن تفاصيل تتعلق بطبيعة العمل وبيئته، أو تتعلق بمظاهر الإقصاء الاجتماعي مثل منع اليابانيين من استعمال حمّامات السباحة في أيام معينة من الأسبوع، أو غير ذلك من تفاصيل لم تكن لتحضر لولا مسار الاستذكار والبحث عن السبب الحقيقي للمجيء إلى هذه البلاد فقولهن: «نتساءل عما إذا كنا ارتكبنا حماقة حين قدمنا للاستقرار بأرض كثيرة العنف شديدة العداء» وقولهن في موضع آخر «هل توجد قبيلة أشد همجية من الأمريكان؟» دليل ساطع على أن ما في طبع اليابانيات من تهذيب وصمت وتسليم تمور تحته موجات غضب عاصف، ليست وطأتها أقل عنفا من الشعور الدفين باحتقار الأمريكي ووصمه.

يبدو الوصم في هذا السياق شبيها بالتصنيف البشري على أساس العرق، وهو من أكثر أنواع الخطاب التي أنتجها الفكر الاستعماري عُنفًا وابتذالاً، لأنه لا يكتفي بإنتاج نمط من الإقصاء بل يعمل على

Twitter: @ketab_n

إنتاج هرمية تسلسلية تقوم على ثنائيات للهيمنة، هيمنة الأبيض على الأسود أو غيره من الأعراق، وهيمنة الرجل على المرأة إلى غير ذلك من الثنائيات التي تصبح منوالا في التفكير وفي التعامل مع الآخر وتمثّله.

ويمكن أن يفهم هذا الموقف على معنى الازداوج الوجداني في طريقة تمثّل الأمريكي رمزيا، وليس اجتماعيا أو ثقافيا، فالحديث عمّا يعيشه المجتمع النسائي الأمريكي من تصحّر عاطفي والتلميح إلى تحوّل بعض اليابانيات ممّن خدمن في المنازل لبعض الأسر الراقية إلى عشيقات لأزواج أمريكيين من شأنه أن يبرز وجها من وجوه هذا الوضع القائم على الازدواج في الشعور بين التعلق والرفض، الانجذاب والنفور، وهو ازدواج يمكن أن يحيل العلاقة التي تبدو في ظل الهيمنة غير متكافئة إلى نوع من التكافؤ الظاهري قوامه تلك المشاعر المتضاربة في شعور المهيمن عليه. لكنّ المتأمّل لمختلف مظاهر هذا الازدواج في طريقة التمثيل العاطفي للآخر المهيمن يتبيّن له أن الازدواج يكمن في طبيعة الفكر المنتج للهيمنة، فهو الذي يصنع تابعين يتغذون من شعور استبطان الهيمنة وإضمار الاحتقار للسيد الغالب، وفي الاستمتاع بما يغدقه هذا السيد أحيانا من اهتمام وعطف ينمّان عن تطلّع غرائبي «exotique» أكثر مما يصدران عن عاطفة إنسانية.

تصف بعض الخادمات اليابانيات الكيفية التي يترجم بها أسيادهن عاطفتهم المتقدة، ففي حديثهن عن بعض ما يفعله هؤلاء بهنّ نفهم أن ما يجذب الأمريكي إلى اليابانية هو رغبة مخصوصة تشبه ما يسمى بالرغبة الكولونيالية، وهي حال تحدُث نتيجة لكلّ الاعتمالات التي يخلقها التجاذب الضمني والصامت بين المهيمن والمهيمن عليه وتولّد نوعا من الانجذاب الممهد للرغبة في ممارسة

Twitter: @ketab_n

الجنس مع الأعراق المختلفة. ويمكن أن تكون هذه الرغبة غير مؤدية إلى علاقة جنسية وإنما إلى ممارسات أخرى لا تخلو من غرابة، إذ هي تفصح عن نوع من السلوك يعرّي الجانب المرضي في العلاقة بين الجانبين وخاصة من جانب السيد المهيمن الذي يصبح عبدا للشغف الكبير في ملاحقة اختلاف الآخر والاستحواذ عليه، ومن ذلك مثلا طلبه من الخادمة في لحظات الخلوة أن تدوس بقدميها على ظهره، وأن تكرر الفعل وهو ممدد، أو أن تقول كلمات باللغة اليابانية يحاول هو على إثر سماعها أن يقلّدها متلذّذا بالغرابة التي يجدها في تجربة اللون البشري المختلف.

و يمكن أن نرى في المقابل أنّ «العِرْقَ المختلف» الذي تحوّل بالنسبة إلى المهيمن إلى موضوع رغبة، لا يخفي استمتاعه بهذا الوضع في مفارقة عجيبة، ليست هي من قبيل ولع المغلوب بالغالب واتباعه، بل هي من قبيل الازدواج المرضي في الشعور الذي يمتزج فيه المقت الشديد بالوله والتوق. وسواء كانت الذات الخاضعة متطلّعة إلى مقاومة الخطاب المهيمن، عاملة على تقويض جزء من سلطته، أو محتقنة غضبا عليه ومستفيدة من نزواته الغرائبية، فهي تتجلى مثل ذات فصامية تتحوّل أحيانا بفعل التقليد إلى ذات مطموسة.

إن موقف الاستغلال الاقتصادي الذي عاشه اليابانيون في المجتمع الأمريكي لا يختلف كثيرا عن الصراع الذي انتقلت مركزيته من امتهان الذات البشرية واستعمارها إلى قضية الهوية، وهو ما يفسّر الهوس الكبير بهذا الموضوع وانتقاله من الجيل الأول من المهاجرين إلى أبنائهم الذين نشؤوا متجرّعين النقمة، فانتهى بهم الأمر إلى الانبتات عن العالم الذي تبنّاه آباؤهم، وهم في ذلك يسجلون موقفا مختلفا عن موقف آبائهم، يرفض الركون إلى التمسك بالهوية

Twitter: @ketab_n

المتمركزة حول فكرة القومية وحدها.

إن رحيل الأبناء موتًا أو انتحارًا أو استغراقًا في نمط عيش مختلف عن هوية آبائهم، يعلن بوضوح عن فشل آخر لمشروع الهوية بالصورة التي ارتضاها الآباء، أو بالصورة التي اختارها الأبناء، حيث يبلغ العنف الرمزي المسلّط على الفئة التي تعيش في ظل مجتمع الهيمنة والإخضاع الثقافيين ذروته لحظة استشعار هؤلاء قسوة الحقيقة، فترتدّ معرفتهم على ذواتهم، وتخرج أيقونة ثقافتهم والمعبّر عن أقدس أقداسهم على معنى مفرغ يجسّم الإفلاس والخواء واللامعنى: «لسنا سوى كدس من رؤوس بوذا» هكذا عبّر الأبناء عن وضعهم وهكذا ارتدّت صورة بوذا نحو الحضيض، ومن أشدّ صور الحضيض عنفًا ما تعمد إليه الثقافة الغالبة من إفراغ محتوى ثقافة المغلوب وإعادة صياغة موقع له يجعله في حال مساءلة دائما لجدوى التمسّك بالخصائص الثقافية للهوية.

لقد نجح هذا النص الروائي في تحقيق بعض أهدافه من حيث تفكيك خطاب الهيمنة، وإبراز مكوناته، والكشف عن التواطؤ غير الواعي من قبل الأطراف الفاعلة فيه على تثبيت الوضع، إذ يتمسك المهيمن عليه بصورة الضحية رغم وعيه بتناقضات خطاب الهيمنة وجوانب الوهن فيه، ويلوذ المهيمن بصورة «المستعمر الطيب» الذي يحمل رسالة إيجابية ذات مضمون حضاري وإنساني.

التقرير التراكمي وغياب الرواية :

تظهر «العلية» أو «الهري» «the attic» في الرواية مرّات، وتُذكر في العنوان وفي أثناء السرد الذي يمزج بين حكاية الأحوال وحكاية الأحداث دون أن تكون إطارا لها، فمن بين الأماكن الكثيرة التي تذكر

Twitter: @ketab_n

في هذا النص، لا نجد العلية مكانا بالمعنى الحقيقي إلاّ قليلا، فهي ليست موضعا لشخصية أو لذكرى وهو ما يرشحها لأن تكون موظفة في معناها الاستعاري أكثر من أي معنى آخر.

يمثّل الهري جزءا من البيت بين السقف وآخر مستوى للغرف ضمن منطقة مخفية وظاهرة في نفس الآن ، تستخدم عادة للتخزين، فهو عبارة عن مساحة لرمي كل الأشياء الزائدة عن الحاجة ومراكمة ما لا يرغب في رؤيته، إنّه مركم ومكان لعزل الأثاث والمتاع ووضعه دون ترتيب. والرواية تُراكم الأحداث بحسب محاور كبرى مختارة دون أن يكون لها نظام أو حبكة أو خيط لتداعي الذكريات، حتّى لو كان متعرّجا أو متداخلا ومتقطعا. إن السرد «الهريوي» المنزع إن صحت العبارة هو الذي تحكم في نسيج هذا النص وجعل منه صوتا واحدا لا يكتفي بنون النسوة جرسا للصوت المتكلّم في الرواية، بل يتجاوز ذلك إلى موقف كأنه يميل إلى دكّ مفهوم القصة والاستغناء عنه والاكتفاء في المقابل بحشد كل شيء من أحداث وتفاصيل وانفعالات وصفات وأسماء وأصوات أو محاكاة للأصوات داخل خطاب واحد.

لم العدول عن كتابة قصة؟ هل هذا المنحى في كتابة ما يشبه التقرير الروائي هو تعبير عن عدم صلاحية الرواية وتردّيها؟

في العرف النظري لتعريف الرواية وخاصة ما جاء في التصور الباختيني ما يسوّغ لحضور أنواع من الاتساع والتنوع في خطاب الرواية وشكلها، ولكنّ تقدير هذا الاتساع الفني، وإن فهم في معنى الخروج عن نواميس السرد وتجاوز الحد، لا يمكن أن يضع الشروط الأساسية لها موضع سؤال.

إن البحث في سبب غياب الرواية أحرى بالاهتمام من وصف الخصائص التي قام عليها السرد في هذا النصّ لأنّه يعمل بالأساس

Twitter: @ketab_n

على محاولة تجاوز المعاني الفنية والوظائف النفعية للقصّ، ويلمّح -ربما- إلى فشل «السرديات الكبرى» على حد عبارة «ليوتار»، في التعبير عمّا كان من محنة الأقليّة اليابانية في سان فرانسيسكو في النصف الأول من القرن الماضي.

يقوم السرد على جمل برقية قصيرة حادّة الوتيرة والنسق، تتنامى متتابعة في شكل رتيب أحيانا، مستقصية التفاصيل القريبة والبعيدة، مفسحة المجال في أحيان قليلة لاستطرادات تزيد في توسيع المجال السردي بحكاية الأقوال. ليس في النصّ حوار وليس فيه شخصية محورية أو شخصيات ظاهرة الملامح القصصية والأبعاد، وليس فيه زمان قصصي، ورؤية فضائية تتحدّد ضمنها مناخات القص بشكل عام، بل نجد فصولا كبرى تجمع تفاصيل أو تكرر أحداثا متشابهة بمتعلقات مختلفة، تُرتّب كلّ مرة بحسب المرحلة، فيطالعنا في البداية فصل بعنوان «مرحبا أيتها الآنسات اليابانيات» يليه فصل «الليلة الأولى» وفصل بعنوان «البيض» ثمّ «ولادات» ثمّ «أطفالنا» ثمّ «خونة» و«اليوم الأخير» و«اختفاء». ويكشف نظام هذه الفصول انطلاقا من العنونة أو من محتواها عن رؤية تشبه التوجّه السيري في الكتابة، فهي تتبع الترتيب التاريخي من المبدأ إلى المنتهى، وكأنّها تقدّم سيرة خاصة للنساء من خلال لوحات سردية لا تكتمل فيها القصة. فالقصّة باطلة، والقص إن لم يكن تقريرا عن كل الحالات لا تتميّز فيه شخصية دون أخرى، فهو لا ينفع ولا يشفع في التعبير عن التجربة الزاخرة التي انطوت على أكثر من بعد.

الكلّ في هذا التقرير «بطل»، والكلّ أشباح في نفس الوقت، أو أسماء وأرقام. لا ينتقي النص من ضمن هذا الكلّ نخبة من الشخصيات لتختزل في صفاتها وتجربتها تجربة جيل بأسره أو مجتمع بأكمله، لأن

Twitter: @ketab_n

المعوّل عليه ليس كتابة القصة بل استعراض كل الشهادات وكل الأحوال وإحصاء كل الأنفاس وكل الكلام المكتوم وغير المكتوم ووصف كل الروائح وكلّ الأشياء وكل الأحداث كبيرها وصغيرها، حتى الدجاجة التي قاقت ووضعت بيضة قبل الرحيل وإقفار الحي الياباني، تُذكر ويؤرّخ لها.

يميل النص إلى محاولة تحويل كل شيء حتى وإن كان تافها وعرضيا إلى أيقونة تحفظ ذاكرة المهجرين وتخلّدها، كأنّ به خوفا من اغتيال الصمت والنسيان لكل ما كان من صخب تلك الأيام الحزينة أو البهيجة،الخاوية أو المفعمة، لشعب كامل مضى في صمت نحو مصير قاتم، ونساء وقعن في خيبة الانتظار وحملن مكرهات وزرهن ووزر مرحلة صعبة.

رُكّبت الأصوات في لحن جماعي مثل كورس يردد أغنياته التي تعوّدها، كأن الصوت الذي أخرس في الماضي يتحرّر داخل هذا النص وكأن في هذا الخطاب الذي ينحرف عمدا عن الروأية، شوقا إلى إنطاق الضمير المصمت للنساء.

كثيرة هي الأصوات التي تنقل في النص ومتنوّعة، ولعلّ الناظر فيه يلاحظ أول ما يلاحظ أن الحرص على تأدية ما حدث في معنى صوتي، واضح بل لافت للانتباه إذ تحضر محاكاة الأصوات بشكل واسع، وتحضر معها كل الجمل التي اختزنت في الذاكرة مرتبطة بتجربة أو مرحلة، مثلما هو الشأن حين تتحدث النساء عن الصوت الذي يُصدرنه في سياستهن للخيل حيث تعلّمن «هي» لجعلها تتقدّم، و«هيهو» لجعلها تتقهقر، و«هو» حين يُردن منها تخفيض السرعة، و«هولا» كي تتوقف، أو عندما يتحدّثن عن تجربة الولادة، ويحضر صوت السنيورة «سانتوس» وتكرارها «امبوجي، امبوجي»، أو لمّا صغن

Twitter: @ketab_n

ملحمة الرحيل واستعدن صوت التي رحلت وهي تحمل نسخة من الكتاب المقدس في يدها وتصرخ «ساكورا، ساكورا». ولا يقلّ التأريخ للأصوات أهمية عن التأريخ للأحداث حيث يغدو دليلا على استعادة إيقاع المرحلة المطوية من تاريخ للصمت، لأنّ للصوت قدرة على التحيين والبعث ليست للسرد. السرد خيانة والأصوات صدق ووفاء.

وإلى جانب الأصوات نلاحظ عناية بنقل الأقوال التي لم ترد في معنى الحوار، وإنّما جاءت بمعنى الخطاب غيرالمباشر الذي يستقصي جملة ما يروج في الأوساط من تعليقات وانطباعات مثلما هو الحال عندما كان الحديث عن اختفاء اليابانيين: «نتحيّر من أجلهم، ندعو لهم، لكن ينبغي للحياة أن تستمر»، أو يستقصي تلك العبارات النمطية التي اعتاد اليابانيون أن يعلّموها زوجاتهم لقضاء شؤونهن اليومية. وهذه الأقوال تضفي على النص وهجا يقرّبه من واقع التجربة كما حدثت في ماضيها البعيد وصدقا يساويه مع محكي الذكريات كما التقطت من أفواه النساء. وهو ما يمكن أن نلاحظه في أقوال الأزواج عندما يبررون لأسيادهم سبب تخلف زوجاتهم عن العمل في الحقل بسبب المرض: «في البداية كانت ساخنة ثم صارت باردة، ثم صارت ساخنة مرة أخرى» أو عندما يتساءل اليابانيون وهم يوشكون على مغادرة بيوتهم خوفا من اعتقالهم واقتحامها عنوة: «ماذا عن فراولتنا؟ إنها ستكون صالحة للقطاف بعد ثلاثة أسابيع» أو تعليق الزوج على مشهد زوجته التي ماتت فجأة وهي تعمل في حقول الطماطم: «ظننتها نائمة».

إنّ كثافة الأقوال المحكيّة في هذا النصّ، تنسجم كثيرا مع قدرة السرد على النهوض بوظيفة تخييل الاعتراف أو تخييل الشهادة، محوّلاً المسرود إلى خضمّ من الأفعال والأقوال والصور والمواقف التي

Twitter: @ketab_n

قد تؤدي إلى نوع من عدم الانتظام أو التراكب والتكرار في ما ينقل.

إنّ كل جملة من الجمل القصصية التي تتحدث عن وضع امرأة يابانية، هي عنوان لقصّة ذُكرت مقدماتها وعتباتها ولم تكتمل باقي عناصرها، فعندما نتأمّل هذا المقطع الذي يصوّر أشكال الرحيل: «بعضنا رحلوا باكين وآخرون ضاحكين. واحدة كانت تضع يدها على فمها تكتم ضحكة مجنونة، آخرون رحلوا في صمت مُنكّسي الرؤوس من شدة الحرج والخجل، زوج ناتسوكو وهو حلاق متقاعد من فلورين رحل متوكئا على عكازين وعمرة قدماء الجيش مغروزة على رأسه «لا أحد ينتصر في الحرب، الجميع مهزومون»، هكذا كان يقول (..) ناومي البنت الكبرى لشيزوما كانت نهبا للقلق ولكنها رحلت بأناقة في تنورة من الصوف الرمادي وحذاء أسود من جلد التمساح، هاناكو رحلت وهي تسعل بانزعاج..»، نلاحظ أن كلّ وضعية من وضعيات الرحيل التي وصفت وتعلقت بشخصية ما، هي إمكان لقصّة يمكن أن تعرف تطورا وختاما قد يختلف عن القصة الأخرى الموازية لها وقد يتفق معها. نظام الحشد للتفاصيل والصفات يمكن أن يكون تجميعا لجملة من البرامج السردية تعرض في صيغتها المبدئية دون أن تكتمل.

إن هذا المنزع يمكن أن يكون متأثرا بفكرة انهيار السرديات الكبرى التي جاءت في سياق الحديث عن بداية عهد ما بعد الحداثة واستبدالها بالسرديات الصغرى وأشكال من القص وجيزة ومختزلة وأيقونية وما نلاحظه في هذا النص من انقطاعات وحشد للأخبار غير المكتملة هو اختيار سردي لا يختلف عن القصص القصيرة جدا والشذرات القصصية.

د. بسمة عروس

الرياض في 2016/1/4

Twitter: @ketab_n

ألف راء

علامات في الرواية العالمية

سلسلة يديرها ظافر ناجي وشوقي العنيزي

الساعة الخامسة والعشرون

المؤلف: قسطنطين جيورجيو
البلد: رومانيا
ترجمة: فائز كم نقش

ظلّ الريح

(مقبرة الكتب المنسية)

المؤلف: كارلوس زافون
البلد: إسبانيا
ترجمة: معاوية عبد المجيد

آخذك وأحملك بعيدا

المؤلف: نيكولو أمانيتي
البلد: إيطاليا
ترجمة: معاوية عبد المجيد

حليب أسود

المؤلفة: إليف شفاق
البلد: تركيا
ترجمة: أحمد العلي

Twitter: @ketab_n

السنة المفقودة
المؤلف: بيدرو ميرال
البلد: الأرجنتين
ترجمة: أشرف القرقني

أسرار
المؤلف: كنوت هامسن
البلد: النرويج
ترجمة: أماني لازار

قطار الليل إلى لشبونة
المؤلف: باسكال مرسييه
البلد: سويسرا
ترجمة: سحر ستالة

رحلة في أقاصي الليل
المؤلف: لويس فرديناند سيلين
البلد: فرنسا
ترجمة: حسن عودة

ذئب البراري
المؤلف: هرمان هيسه
البلد: ألمانيا
ترجمة: أسامة منزلجي

انقطاعات الموت
المؤلف: خوزيه ساراماغو
البلد: البرتغال
ترجمة: صالح علماني

Twitter: @ketab_n

ساعي بريد نيرودا
المؤلف: أنطونيو سكارميتا
البلد: الشيلي
ترجمة: صالح علماني

زوربا اليوناني
المؤلف: نيكوس كازنتزاكي
البلد: اليونان
ترجمة: أسامة إسبر

مِيتَتان لرجل واحد
المؤلف: جورج أمادو
البلد: البرازيل
ترجمة: عبد الجليل العربي

الحب والظلال
المؤلف: إيزابيل الليندي
البلد: الشيلي
ترجمة: صالح علماني

عرس الشاعر
المؤلف: أنطونيو سكارميتا
البلد: الشيلي
ترجمة: صالح علماني

لاعب الشطرنج
المؤلف: ستيفان سفايغ
البلد: النمسا
ترجمة: سحر ستّالة

Twitter: @ketab_n

نرسيس وغودموند

المؤلف: هرمان هيسه
البلد: ألمانيا
ترجمة: أسامة منزلجي

الحب في زمن الكوليرا

المؤلف: غابريال غارسيا ماركيز
البلد: كولمبيا
ترجمة: صالح علماني
(الترجمة العربية الكاملة 2016)

رابطة الشعراء الأموات

المؤلف: نانسي.هـ كلينباوم
البلد: أمريكا
ترجمة: أماني لازار

ألعاب خطيرة

المؤلف: أغوز آتاي
البلد: تركيا
ترجمة: بكر صدقي

لمواكبة جميع إصداراتنا، تابعوا صفحتنا

على تويتر: @MascilianaE

وعلى الفايسبوك: Masciliana Editions

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

جولي أوتسوكا

بوذا في العالم السفلي

هي أوديسة من نوع خاص. إبحار إلى ديار بعيدة دونما أمل في العودة. ارتحال مجموعة فتيات معدمات من أرياف اليابان وقراه المنسية بحثا عن زوج يحفظ لهن عيشا غير الذي كن يعشنه في مزارع الأرز البائسة. بنات أغلبهن عذارى يحملن صور أزواج لا يعرفنهم، وألبسة تقليدية بسيطة، وأشياء أخرى حميمة يحفظنها بين دفوف كتب من نوع «مرحبا أيتها الآنسات اليابانيات!» أو «دليل المسافر إلى أمريكا» ويخبّئن بين الضلوع أسرارا لا يبحن بها لأحد، ورغائب ومخاوف. رغائب أنثوية بفرحة العمر، ومخاوف منح الجسد لرجل مجهول في بلد مجهول.

رحلة شاقة في قعر باخرة قديمة تمخر عباب المحيط الهادئ باتجاه كاليفورنيا، تنجاب حين أرست مراسيها عن واقع مرّ يرديهنّ إلى درك وضيع، حيث يكتشفن أن الواقع غير ما حملته الرسائل، وأن الصور المرسلة قديمة يرجع عهدها إلى عشرين عاما، وأن الأزواج الموعودين عمال بسطاء في مزارع القطن والخضروات...

هذه الأوديسة هي حلقة منسية من تاريخ اليابان الحديث، أعادتها إلى الذاكرة جولي أوتسوكا، وهي كاتبة أمريكية من أصل ياباني، حازت بفضل هذه الرواية جائزة فوكنر للرواية سنة 2011 وجائزة فيمينا للرواية الأجنبية في فرنسا سنة 2012.

أبوبكر العيّادي

ISBN: 978-9938-833-52-2
9 789938 833522